



مذائيب ومخزيات

ابن حنبل

تأليف
محدث جب البيومي
تقديم
محدث عطا



مذاهب و شخصیات

ابن حنبل

تأليف : محمد رجب البيومي
تقديم : محمد عطا

تقديم

لم أجد شخصية من الشخصيات الاسلامية اتسمت بالشجاعة والثبات على المبدأ كشخصية أحمد بن حنبل ، فهو نموذج فريد وجبهة من الحياة العالمية التي فعتز بها ونفخر ، فلم يخفل بالتعذيب والاضطهاد في سبيل فكرته التي اختمرت في ذهنه وجاهر بها .

لقد كان مثالا للورع والزهد يتعفف عن عطايا الخلفاء حتى لا يستذلوه أو يؤثروا عليه أدنى تأثير على حين أن غيره في عصره كان يتلهف عليها بل يسعى اليها .

وكان عالما متجردا وهب نفسه للعلم ، وقد أعانه على ذلك عدم تعلقه بالدنيا وانصرافه عنها وحافظة نادرة وذاكرة قوية فقد كان يحفظ آلاف الاحاديث ، وتخرج يبلغ الى حد الوسوسة وهذا منتهى الأمانة العلمية فاذا سئل عن حديث لم يشأ أن يرويه من ذاكرته بل يرجع الى كراسات المذونة حتى لا يدع كلمة أو يغير لفظا وانه لكلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ينبغي ألا يروى بمعناه .

وأعانه أيضا حبه للخلوة ، وانطواؤه على نفسه حيث يكون التفكير المجرد والتأمل العميق وحيث تفتح للعالم آفاق واسعة من المعرفة ، وحلول لمسير المشكلات العلمية .

وابن حنبل ثقافته عربية خالصة ، نابعة من كتاب الله ، وأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وماروى عن الصحابة والتابعين ، وتأثر من غير شك بمعاصرة الامام الشافعي كما ذكر المؤلف .

ولعله من بين الأئمة الذين يتمسكون بحرفية النص ، ولا يكادون يبيعدون في التخریج والتفسير والجلد .

وابن حنبل كتب عنه الاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة مؤلفه
ضخما ، ولكن مثل ابن حنبل في حاجة الى أن يعكف عليه كتاب
وكتاب ممن تدرسوا بالدراسة الاسلامية ، وتعمقوا روح الفقه
والتشريع على أن هذا البحث يمتاز بالأسلوب الأدبي العلمي أى
الذى يجمع بين المادة العلمية والصورة الادبية مما جعله محببا الى
النفس .

ولأترك القارئ ليعيش مع شخصية من الشخصيات الاسلامية
الفذة ، المتعددة الجوانب ، المشرقة في تاريخنا .

محمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أكتب هذه الصفحات المتواضعة عن أحمد بن حنبل لأكثر من

• سبب •

فالرجل مجاهد مثابر تعرض لأفسى ضروب المحن ، وتحمل أشق مرهقات البلاء ، فكان الشجاع القوى المكين ..

والرجل عالم فقيه له مذهبه المعتمد وتلاميذه العظام ، وقد ترك في المجتمع الاسلامي لمهده دويا يجلجل وصدى یرن ومازال تأثيره النفاذ يسير من قرن الى قرن في دنيا التشريع والقانون فيهدى الى طريق أمثل ويشير الى خطة مجتباء ..

والرجل علم خافق في موكب الأخلاق النبيلة فقد احتقر شهوات النفوس وارتفع بفرائض البشر الى مقام وضئ ترفرف فيه أجنحة الكرامة والعزة ، حتى صارت حياته كتابا في السلوك الانساني يقرؤه من يريد لنفسه شرف الحياة ومجد الأبد وسعادة الآخرة .. وان رجلا كبيرا له هذه الصفات لجدير أن تقدم حياته في كتاب ..

ولن نزع أننا نكتب حياة الرجل مبتدئين .. فقد كتب عنه الكثير من المؤلفات في القديم والحديث ولكننا نسلک في الحديث عن الرجل مسلکا تميز به وتنفرد ، فنحن نحاول أن نجعل من حياته قصة واقعية تنبض بالحركة وتجيئ بالقوة • وعمل كهذا لا بد أن يصطدم بعقبات شائكة تعترض سبيل القول وتقطع تيار التدفق والتشويق فهناك حقائق علمية دقيقة يزعجها كثيرا أن يكتنفها التصوير

الأدبي بظلاله وأضوائه ، ولئن جازت القصة الفنية في حياة بطل حربي أو زعيم سياسي ، أو شاعر عاطفي فإنها في حياة عالم محدث له منهجه التشريعي ومنهجه الفقهي قد تكون مدعاة السطحية والضحولة ولكننا حاولنا جهد المستطاع أن نحفظ للبحث العلمي حرمة المنهجية في فصول هامة تدور في فلكه وتتخيل في نطاقه دون أن نتخلّى عن وضوح العبارة وبلاغة الرد وسلامة البرهان أما أبواب البطولة والنضال فقد استطاع الفن الأدبي أن يمدّها بالوانه الحية وهي ألوان هادئة لم نشأ أن نزيد في توهجها زيادة ترتفع بالواقع الى الخيال ولكننا نجعل منها مصباحاً يضيء الطريق الى الحقيقة لتظهر في نطاقها الواضح وضيفة المعالم مشرقة السمات .

على أنا نكتب هذا الكتاب ، لا ليكون صفحات من التاريخ العلمي والسياسي فحسب بل ليكون مجال عظة بالغة وقدوة مصطفىاء فكتب السلوك الانساني في ميداني التربية والأخلاق لا تستطيع بفردتها أن تنهض برسالتها المجيدة دون أن تتخذ من مواقف العظماء في سجل التاريخ أمثلة واقعية ملموسة للصبر والكمال والترفع والثبات . وما الى ذلك من ضروب الفضائل وصنوف المحامد . فاذا استطاعت كتب التراجم أن تقدم هذه الأمثلة الرائعة لطلاب المعرفة فإنها تتيح للانسانية نضوجاً كاملاً ينهض بها الى أوج السعادة كما تهيم للآجيال المتعاقبة أن تسلك جادة الفضيلة عن أسوة حميدة واقتداءً مجيد .

ونحن في حديثنا عن الامام لم نشأ أن نغض النظر عما نختلف واياء في تقدير عن الاعمال والاقوال فلكل انسان منحاه ومشربه ، ولن يكون اختلاف وجهات الرأي موهناً لأواصر المحبة والاعجاب بل ان ذلك أمر طبيعي في دنيا تختلف فيها المؤثرات والمقومات وهو الدليل الاكيد على أننا لم نقف في حديثنا التاريخي موقف الدفاع « ولكننا نقف موقف القضاء » فاذا كان للمحامى البارع أن ينتحل الأسباب فليس للقاضي النزيه غير الحيطة والانصاف .

لقد حاول القرن العشرون بما ابتدع من فنون العلم ووسائل

المعرفة أن يشوه بعض القضايا الإنسانية فيردها الى فوازع نفسية ترجع الى حب الذات واشتهاء السيطرة حتى ليكاد بعض دارسي علم النفس أن يرد كل مكرمة فاضلة الى أصل مريض تنسرب أفاعيه في أطواء النفس حتى كادت أن تشوه معاني الفداية والتضحية والايثار ولن نجد سلاحا بتارا تقضى به على هؤلاء المفترضين من علماء التحليل والتشريح غير أن تقدم لهم تواريخ صادقة لأفاس واقعيين سموا عن نزواتهم فارتفعوا عن رغبات الجسد والنفس أشرف ارتفاع وآهاهم ثم يقول هؤلاء الدارسين الغلاة أمامكم تلك المثل الخالصة والعبر الخالدة ففيها الدليل الحى على السمو بالفرائز والارتفاع عن الرغبات والمآرب .. فليست اذن دواعى الهبوط والانحدار أمرا محتوما .. ولكنها تجد فناءها العاجل فى التربية الصالحة والنهج القويم ... وحياة كحياة أحمد بن حنبل فى ترفعه وشموخه ، وفى تواضعه وانكساره ، وفى ثباته وصرامته من أقوم الأمثلة المفحمة وأعدل البراهين المنتقاة . ونحن فى الواقع لا نؤرخ لأحمد وحده ولكننا نكتب عن عصر حافل بالأحداث مضطرم بالفتن والثورات جياش بالآراء والمعتقدات وقد كان أحمد قمة عالية فى دنياه فاذا تحدثنا عن مواقفه وآرائه فانما نتحدث عن رجل قاد مجتمعه وأثر فى توجيهه وشارك فى بنائه وبذلك نرسم صورة هذا العصر الزاخر فى معرض التحليل التاريخى لفرد من أبنائه ومازال القادة من الرجال يلخصون أحداث أحقابهم فى مواقفهم الفاصلة ومعاركهم الحاسمة والبطل مرآة جيله كما يقال ...

لقد كان من الغريب الشاذ أن يتفرد الساسة من الملوك فى عصور الارستقراطية الشامخة والوزراء بتمثيل عصورهم المختلفة فى موكب التاريخ دون أن يكون لسواهم الا ماندر من العلماء والمصلحين نصيهم القوى فى التعبير والتمثيل مع أن هؤلاء - باندماجهم الشعبى - أصدق دلالة وأوضح صورة من أولئك فاذا التفت كتاب التراجم فى عصور الديمقراطية الحديثة الى الكلام عن أبطال الحرية والكرامة من رجال الشعب فانما يستغفرون عن تقصير معيب وقع فيه أسلافهم من المؤرخين حين جعلوا القصور وحدها موضع العناية والاحتفال وقد

كان في تاريخ ذوى البسالة والنضال مجال متسع للحديث كى يتبوا كل مناضل صبور مكانه الحق في حرم الخلود من ناحية - ولننفي من ناحية ثانية تلك السامة المملة التى ترين علينا بفتورها العازف حين نطالع تاريخنا تقليديا لأناس قذفت بهم الوراثة الى قمم النباهة دون أن تسعفهم الموهبة الدافعة فظلوا في أضواءهم الباهرة متضائلين منكمشين...

آن لنا أن نفعل الحديث عن لا يستحقون الحديث ثم تتجه به الى قوم بذلوا العرق والدمع والدم حتى أدوا رسالتهم الخالدة في الحياة ... وأحمد بن حنبل أحد هؤلاء بلا نزاع واذن فهو جدير كل الجدارة باهتمام المنصفين ...

وقد قرأنا فيما كتب عن الرجل أخبارا كثيرة تحتشد وتتراحم ، ولم نشأ أن نتخذ مما وقفنا عليه جميعه مادة للحديث بل عمدا الى ما يكشف عن شخصيته ويرسم منهجه فسلطنا الضوء عليه من نافذة التحليل والنقد ، قرب خبر صغير يكتب في سطر واحد فيكون أصدق في الدلالة على سلوك صاحبه من مئات الأخبار ولذلك كان موضع الاختيار في التسجيل والتعليق فهو على وجازته الضئيلة مفتاح سهل لباب الشخصية الموصد ، تديره فيكشف لك ما بالداخل من محتويات ولعل القارىء يعلم أن كتب المناقب - فى أخبار علماء الدين خاصة - تزدحم بالمبالغات وتفيض بالاغراق ، وقد قرأنا كثيرا مما تلاطم موجه في هذا المحيط الزخار ولكننا لم نشأ أن نكشف عن مبالغتها الزائفة بل عمدا الى ما قامت الدلائل على صحته فأخذنا منه الشاهد الذى لا يخطئ وسرنا معه فى اتجاهه المنطقى حتى انكشف لنا الامام - جهد الطاقة - بمواطنه ومشاعره وخلقاته من جهة وبأفكاره ومذهبه ومنطقه من جهة ثانية .. ونرجو أن نكون بذلك قد وضعنا صورته الصلدة فى اطار أمين يبرز أدق الملامح ولا يغفل ما يستتر وراءها من نبض وانفعال ، نرجو ذلك ونأمله وعسى أن نصل بالقارىء الى ما نريد .

عطريفوج

هل كان يدري هذا الفتى الناحل الذى يحمل أوراقه مختلفا الى
مساجد بغداد وفي مشيته تؤدة واطمئنان وعلى محياه جد واهتمام أنه
سيصبح ملء السمع والبصر بعد أمد قد يطول ؟ وهل كان يدري
قرناؤه ولداته أنهم يخفون بطالب علم ذى مستقبل مرموق تنتظره
الخطوة العالية وترتقبه الشهرة اللامعة ليصبح فيما بعد نجما ساطعا
متألق الأضواء ؟

ذلكم هو الفتى أحمد بن حنبل الشيبانى الفقيه المحدث الحجة
العظيم ...

وند في شهر ربيع الاول في بغداد سنة ١٦٤هـ لأسرة عربية خالصة
من شيان وترعرع في أكناف هذه القبيلة ذات التاريخ المجيد فسرت
في عروقه دماؤها الأبية النقية وتدارس مايرويه الثقافة عن أعلامها
البواسل في الجاهلية والاسلام وحمد الله اذ رأى له سلفا طيبا تتأرجح
سيرته بالمحامد فهو أصيل معرق ينتمى الى قوم ذوى حسب وتاريخ ...

هذا جده القائد الباسل المثنى بن حارثة الشيبانى يحمل الراية
المحمدية في ميدان الفتوح الاسلامية فيطير من نصر الى نصر ويوطئ
للالاسلام في بلاد الوثنية فتقدم الجيوش الظافرة تحت لوائه الى
العراق والى فارس ميمونا منصورا ثم تتداركه رحمة الله فتصعد
روح المجاهدة الى سمائها قريرة بما هيا لها الله من رضوان ، سعيدة
بما قدمت للاسلام من أمجاد .

وهذا معن بن زائدة الشيبانى مضرب المثل في الحلم والشجاعة
يتخذ علماء الاخلاق من سيرته مثلا رائعا لسعة الصدر وحلاوة الصفح

ونبل السمات رهو بعد فارس الحومة ، المعلم يميل الى بنى أمية
فيذود عن حوزتهم وينافح عن سلطانهم حتى اذا اجتمع المسلمون على
بيت آخر لبنى العباس انضم الى الجماعة ووقف يوم الهاشمية دون
أبى جعفر المنصور يرمى أعداءه ويناوى معارضيهِ . حتى ترجح كفته
ويقتاد النصر بعد جموح ...

وهذا يزيد بن يزيد الشيباني ترمى به الخلافة العباسية الى أقوى
الخصوم شوكة وأشدّهم شكية فينهض للجلى في بسالة واصرار ،
ويلاقى الهول في معركة فدائية مع فريق ثائر من كماء الخوارج .. فما
تهن عريكته بل يسير الى النصر على رؤوس الكماة وجماجم الابطال
ثم يرجع الى بغداد لتستقبله هاتفة مصفقة في يوم مجموع له الناس ..

وهذا خالد بن يزيد .. وهذا سواء وسواء ...

أمثلة رائعة للبطولة العالية أنجبتها هذه القبيلة الخصيبة فكانت
قلادة وضيئة يزدهى بها كل شيباني طامح .. وأحمد من يوم نشأته
لا يفتخر بأمجاد وأبطال بل يتناقل حديث الآباء فى تواضع عزيز شاكر
لله أن أنبت عوده الأخضر فى أرض خضراء فمنا واستطال .. ماذا
يريد القدر لهذا الناشئ الكريم ؟ انه يدور بعينه باحثا عن أبيه
فلا يجده مقبلا عليه بوجهه الطلق وحنانه الرحيم لقد تخطفته المنايا
السود فى طفولته فنشأ يتيمًا يأوى الى أمه الرءوم .. فاذا هزه الشوق
الى أرج من سيرة والده الفقيده حدثته الوالدة الحنون عن هذا الجندي
الباسل الذى صحب الجيوش ولازم المعارك حتى أدى واجب البطولة
فى ريعان شبابه فكان باستشهاده الرائع مثلا آخر يضاف الى ما قدمه
من أمثال ، ثم يسأل عن جده بعد أبيه فيعلم أنه كان واليا فى خاتمة
العهد الأموى ولكنه ثار على الكسروية الأموية فعاون دعاة العباسيين
ولقى ما يلقاه أصحاب العقائد المخلصة من أذى وتنكيل وقد تحقق أمله
فى استئصال البغى فسقطت دولة وتهايت دولة للنهوض !!

يسمع الفتى الناشئ حديث قبيلته العريقة ثم يسمع أنباء أسرته

القريبة فيرى أنه ذو نسب وحسب ولا بد أن يسير في طريق من تقدمه
في ميدان المجادة والسمو ... ولكن أى ميدان يريد ؟

لقد كان سابقوه أبطال حروب وهو بطيعته الرحيمة ينفر من
اندماء ويتفرم شعوره أسفا أن يفصل رأس عن رقبة او يتطاير ذراع
من جسم ، فليست حومات الابطال مراده ومبتناه ، ولكن هناك مجالس
هادئة للعلم يفسر في حلقاتها كتاب الله ، ويروى في رحابها حديث
محمد وهي أولى بمهمته السامية ، وان بقلبه لحنيا دائبا لأن يحفظ
ويروى ، وأن يستفيد ويفيد ... لذلك أقبل على كتاب الله يتلوه
ويستظهره حتى اذا تدفق على لسانه فيضا طهورا من لدن عزيز حكيم
فهض الى حديث محمد ، يجمع أوابدء وينقل فرائده ، ويسيطر
الصحف الكثيرة مليئة بهديه الحميد ، وقد برح به حب الحديث تبريحا
يكابد منه ما يكابد العاشق من صابته فهو لا يغفل عنه في راحة أو
غدوة بل يظل يتلقاه عن شيوخه مستوضحا وكاتبا وحافظا حتى اذا
رجع الى بيته أجراه على لسانه نشيدا يترنم به ، وفي كل قراءة ينكشف
له معنى جديدا حتى صار الهدى النبوى شغلا شاغلا لقلبه وعقله
ولسانه وأجيب به من مشغلة تضىء العقل وتير القلب وتهدى الى
السماء ...

لم يكن اكباب أحمد على القرآن والحديث بمانعه أن يدرس
قواعد اللغة وعلوم الأدب فهي الطريق الأول الى اجادة الافصاح
وسلامة التعبير ولن يكونا فقيه محدث بدون لغة وبيان ومادام الادب
وسيلة جيدة للشرح والتبيين فلا بد أن يوجه اليه الشاب همته وهو
- بعد - العربى الشيبانى الذى ورث الفصاحة فيما ورثه عن قبيلته من
أخلاق لذلك كان طريقه اللغة والادب ذلولا مبدا ، فما عثم أن ألم بقواعد
القول وأصول الكلام فسلم لسانه من الخطأ وساعده اطلاعه الادبى
في بحته العلمى ففهم القرآن فهم الخير المتضلع وانكشف له من
اسرار اعجلزه مازاده ايمانا وايقانا .. وحرص على الحديث حرصا
بالغا وقد تألق في عينيه فصاحة ونصاعة وتشربته نفسه شهذا مذابا فيه

جلاء العقل واشباع الوجدان .. وقد سلك مسلك الجد الصارم في حياته العملية يافعا وشابا وكهلا وشيخا فكان اذا أقبل على العلم في إحدى حلقاته طالبا أو مدرسا انصرف عن كل شيء سواه واتجه اليه اتجاء من لا يرى في الحياة شيئا دونه فاذا ندت بادرة شاذة من أحد رفاقه تحملها صامتا على مضض ، واذا عنت فكاهة طارئة لم يشارك في استحسانها بعض المشاركة بل كل شيء غير الفقه والحديث في اعتقاده هباء أى هباء وقد عرف رفاقه الأجلاء هذا عنه فكانوا لا يمزحون في حضرته فقد روى ابن نعيم عن خلف بن سالم انه قال « كنا في مجلس يزيد بن هارون فمزح يزيد فتنحج أحمد بن حنبل ، فضرب الشيخ بيده على جبينه وقال ألا أعلمتموني أن أحمد هنا حتى لا أمزح » (١) والفكاهة في مجالس الشرح قد تكون مرغوبة نافعة لأنها تزيل بعض السأم المتكاثر من الجد المتواصل وتخفف كثيرا أو قليلا من أعباء باهظة ينوء بها العقل المستوعب ، وقد كان رسول الله يمزح ولكن لا يقول الا حقا فمن اتجه اليها أو رجب بها من الاساتذة فله وجهة نظره التربوية مالم يبالغ في كثرتها مبالغة تنهب يبهاء الدرس وروثه وتصرف الطلاب عما هم بصدد من الاستيعاب والتحصيل ولا نظن أستاذا مخلصا يبلغ بها هذا المبلغ الوبىء ولعل أحمد بن حنبل كان يكره الفكاهة في مجلس العلم لشيء في نفسه فهو يعكف على دروس الفقه والحديث ولهما من التجلة والهيبة في رأيه ما يصمهما من المزح والتندر ، أما دروس الأدب والشعر واللغة والتاريخ فما نظن الامام يتشدد فيها هذا التشدد ، ولنا أن ندرك من ذلك شغفه الزائد بفقه الكتاب وتعظيمه البالغ لهدى السنة ، ولم لا يكون الوقار المهيّب طبيعة ملازمة تسيطر عليه في نفسه فتأبى كل ما يخذل رزاتها الجليلة من مزاح .. ذلك صنف من الناس يطبق ما لا يطبقون ...

هذا الوقار المهيّب قد ظلله في نشأته اليافعة فكان الصبي الناهض حين من يعرفونه موضع الاحترام والتجلة ، وله من تقواه وصلاحه

وارتقاعه عن قنائص لداته ما يجعله موضع الثقة من العامة والخاصة ، حتى ان نساء بغداد كن لا يأتين غيره في قراءة الرسائل القادمة من أزواجهن ، اذا اغتربوا في الجهاد والغزو فكن يسمعن الى بيت أحمد وحده ، ومعهن الكتب الواردة فيفض غلافها ويقرؤها في أدب وأمانة ثم يجيب عنها بما تريده صاحبة الشأن ويصبح ذلك كله نسيانسيا فلا يعلم أحد ما دار بين الزوج وزوجته من حديث .. ولولا سمعة الرجل وسلوكه القويم ما أصبح موضع الامانة والاستقامة من نفوس الجماهير ...

وأمر ثان يشير الى تقواه وورعه في صباه حيث تجمع الأهواء وترسل النفوس الى نزواتها دون وازع أو رقيب فقد كان أحد أعمامه يرأسل الولاية بأنباء الرعية لترفع الى الخليفة لقاء أجر ثمين يصلح به معاشه ويرغد حياته ، وغاب يوما عن المدينة لبعض شأنه فكلف ابن أخيه الناشئ أن ينهض بها الى الوالى وله منه الأجر الجزيل والخطوة العالية ولعله يسكون موضع اختياره فيتدرج قدما فى مناصب الدولة حتى يصل الى ما يريد الناس من عزة وجاه . وابتظر الوالى أن تأتية الاخبار فامتنعت وجاء عم أحمد ليقول .. انه كلف بها ابن أخيه وانعقد مجلس الثلاثة فى بيت الوالى لمحااسبة المتخلف المتأخر ولكن الغلام الناشئ يصرخ فى وجهى الرجلين الرشيدين « لست ممن يجمعون الاخبار - انى أخاف الله » ولك أن تتصور بخيالك من وراء الغيب تضاؤل الرجلين وانكماشهما أمام صيحة حق مرعدة من غلام صغير .. ولك أن تتصور بخيالك من وراء الغيب عظمة أحمد وسموه وقد علا بالكرامة علوا فى مجلسه وتلاأ وجهه بنور الايمان فجعل الوالى يسترجع فى خشية ويقول : « لا حول ولا قوة الا بالله !! !! غلام صغير يتورع ونحن هالكوان »

ر : طبق الناشئ الطامح يحضر مجالس الكبار وسنه دون السادسة عشرة وفى عينيه بوارق تومض بالرفعة وتكشف عما يكون لصاحبها

من مقام حتى قال الهيثم بن جميل .. ان لكل زمان رجلا يكون حجة على أهله ، ولقد كان الفضيل بن عياض حجة على أهل زمانه وأظن هذا الفتى ان عاش سيكون حجة على أهل زمانه وهو يعنى أحمد بن حنبل .

ولقد حضر قوم من المشتغلين بالحديث والفقه مجلس الإمام الكبير أبى عاصم الضحاك فقال لهم « ألا تتفقهون وليس فيكم فقيه ؟ » وأخذ يلومهم فقالوا فينا شاب صغير سيجيء الساعة وكانوا يعنون أحمد بن حنبل فما لبث أن حضر فقال له أبو عاصم : تقدم أيها الفتى فأجاب في أدب : أكره ان اتخطى اليك الرقاب ، فقال أبو عاصم : تلك أولى دلائل فقهه ، أوسعوا له أوسعوا له .. فأوسعوا له .. فأوسعوا حتى دخل فجلس بين يديه فالتقى اليه مسألة فأجاب ، وثنية فأجاب وثالثة فأجاب فتمتع به الى مسائل دقيقة ذات بواطن وشجون فنفذ اليها ببصيرته وأجاب الاجابة الموافقة فقال أبو عاصم ، هذا الفتى من العجائب (١) ..

تلك وأمثالها — شهادات مزكية على ملائ الناس من أئمة يقولون فيسمعون ولو كانت لغير أحمد لطار بها في كل أوج وجعلها أغرودة يشدو بها في مجالس اعتداده وتباهيه ولكن الفتى يعلها تشجيما جميلا على السير وحناء طيبا على العمل وأثرها في نفسه لا يتجاوز شحذ العزيمة واحكام التصميم ليلغ من دينه وعلمه مبلغا ينال به حظوة ميمونة لدى الله وحده دون اعتبار للناس وهو لذلك يرحل من مكان الى مكان ويترك فقيها ليحدث فقيها ، ودواته في يده ، يردد ما يسمع ويحفظ ما يمي ، وعلى الله قصد السبيل .

لقد طلب الحديث في بغداد فرواه عن ثقاته العدول وكان ينهض في منتصف الليل ليخف الى المسجد منتظرا حلقة الدرس فترحمه الله وتأخذ شبابه فلا تتركه حتى تسمع آذان الفجر والفتى يخضع لارادة والدته غير راض عن بقاءه في حجر بيته ولخير له أن ينهض وحيدا في

رهبة الليل وسكونه قائما وقاعدا في مسجد ربه يحذر الآخرة ويرجو
رحمة خالقه ، من أن يظل رهين داره فلا يسعد بركوع أو بسجود ،
والأم المشفقة تنظر الى برد الليل وظلامه وقطاع طريقه فتحذر أن يلم
بفتاها الصغير بعض ما يؤذيه فتأخذ بتلاييه حريصة شفيقة . حتى اذا
رأت الناس يروحون وينهبون صرفته الى مبتغاه وفي عينيها أمل
وعلى لسانها دعاء ..

ولم لا يجب أحمد مسجد بغداد وفقه بغداد ؟ وهذا أستاذه هيثم بن
بشير الواسطي يقرئه حديث محمد في مسكينة وخشوع وكان ذا سمت
حسن ونطق فصيح وله هبة في قهوس تلاييده فلا يسأل عن مسألة
حتى يلتمس السؤال ، ولصوته رنة حلوة عالية تتجاوب بها أصداء
المسجد الفسيح فتحيلها نغما علويا يسبح في الآفاق ، ومن عادته أن
يسبح بحمد الله بين رواية ورواية وحديث وحديث ، فاذا انتهى من
أثر نبوي رفع عقبرته الناعمة بقوله : لا اله الا الله ماذا حروفها موقعا
كلماتها . فيعترى المجلس خشوع مهيب ويستشعر القوم خشية
الله وجلاله فينسبون عالم الأرض ويطيرون بأجنحة الى السماء ..
وما تظن بأحاسيس أحمد ومشاعره عند ذلك .. وقد نسي الحياة
والاحياء وعاش مع آثار رسول الله ...

عاش مع آثار رسول الله في بغداد ، حتى اذا استنفد ما بها من
علم ، عزم على الرحلة الى مختلف الجهات من يمن وحجاز وكوفة
وبصرة فأخذ يلقي رجال الحديث ليكتب من أفواههم ما يقولون .
والرحلة في عهد أحمد عناء لازب وجهد مرهق فلا طريق معبد ولا
لفقة تهيب الدابة الذلول !! !! بل اعتساف في الوعر والسهل وخط
في الصخر والقفر وصبر على الفاقة والحرمان مع ترفع كريم عن
العتاء وتأب شرف على الهوان والاستجداء !! !! وما تظن بعالم
مفضل كأحمد بن حنبل تضيق به ذات يده في رحلة الى اليمن
فلا يلتمس قرضا من رفيق أو يطلب زادا من صديق بل يكرى نفسه
حمالا في الطريق فيضع على عاتقه الواهن ما يثقله ، من عبء كي يناله
رزقه سائنا حلالا دون من يكدره أو هوان يؤذيه ..

ولقد كان لأحمد متسع عن الكدح واللغوب لو نسي مثاليته
الخارقة لحظة من اللحظات وعاش في الواقع قليلا قبل عطايا الخلفاء
كما يقبلها غيره من الأئمة الأعلام !! !! !!

إن الخليفة حين يهب رجال الحديث والفقهاء ، شيئا من مال
المسلمين لا يهب من بيت أبيه وجده ، ولكنه ينفق مال المؤمنين على
جماعة منهم وقفوا أنفسهم على حفظ الشريعة وصيانة الاسلام كما
ينفق مال الدولة على الجنود وأرباب الوظائف ممن يصوفون ثغورها
النائية ويحفظون ادارتها المتشعبة !! !! بل إن صيانة العقيدة أقوى
أثرا وأشد باعنا ، فإذا أخذ الفقيه مال الدولة فقد أخذه من طريق
مأمون لقاء عمل شاق وجهد طويل !! !! تلك وجهة من أخذوا حظوظهم
من بيت المال فاستعانوا بها على المكروه وعاشوا في غبطة ونعيم (١) !!
ولكن أحمد يرفض عطاء أصحاب الحديث فيفريق على زملائه
وتدافع الأيدي إلى اقتناصه وهو معرض يشيخ !! !! ذلك مبدأ تشربه
ولن يتزحزح عنه في قليل !!

ونحن نتساءل .. هل كان الرجل يجهل أن المال مال الدولة وأنه
صاحب حق مشروع ؟

لا شك أن أحمد في علمه وفقهه يعلم ذلك ، ولكنه يخشى أن
يكون ذلك المال ذريعة لتحكم السلطان وأرضائه فهو إذا قبل المنحة
فتح على نفسه بابا من الهواجس والشكوك فربما اعتقد صاحب الأمر
أنه ذو فضل عليه ، فلاحقه برغبات لا يرضى عنها الأبى الميوف في
شيء وأولى أن يوصد أمامه كل منفذ للظن والريب فيظل شامخا
مرتعا لا يحس لأحد بسيطرة عليه غير الله وتلك هي عزة المؤمنين
وسبيل الحفظة الأبادة ..

ضرب الإمام في مناكب الأرض شرقا وغربا طلبا للحديث وحجا

(١) صاحب هذا الرأي هو الاستاذ أبو زهره في كتابه عن ابن حنبل

ص ٧٥

ليت الله !! لا شيء غير ذلك وراء هذه الرحلات المتلاحقة ابتغاء وجه ربه ، وقد حج رضى الله عنه مرتين راكبا وثلاث مرات ماشيا !! وحدث أحد أبنائه أنه أفتق في إحدى حجتيه الأولين عشرين درهما فأبى احتمال للبلاء والجهد والحرمان أعنف من هذا الاحتمال !! ؟ عشرون درهما ينفقها حاج مرهق في مدى ستة أشهر ذات أسابيع وأيام !! ؟ وهو مع ذلك يترفع عن عطاء له فيه حقوق ، ويتسامى عن ضروريات يصيبه افتقادها المرير بعناء أى عناء !!

وأى مورد لأحمد يصيب منه الكفاف ؟ لقد ترك له والده عقارا يغل عليه سبعة عشر درهما في كل شهر ، فكان يقنع بإيراده صابرا حتى إذا اشتد به الضيق أخذ يلتقط بقايا الزرع مما هو في حكم المباح إذ أنه أصحاب الحقول يتركونها للسابلة دون رغبة فيما تركوه مع حرصه البالغ على ألا يلج أرضا مادون إذن من صاحبها !! وهو في التقاطه وجمعه لا يفسد زرع أحد بل يفتى بحرمة من يفعل ذلك ويدعو الى الصلاح والاصلاح وربما أعسر في غير موعد الالتقاط أو مكانه فنسخ الكتب وباعها أو نسج التلك وعرضها .

قال على بن الجهم : (كان لنا جار فأخرج لنا كتابا فقال أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا هذا خط أحمد بن حنبل قلنا : فكيف كتب ذلك ؟ قال كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينه ففقدنا أحمد أياما ثم جئنا لنسأل عنه فإذا الباب مردود عليه ، فقلنا ما خبرك ؟ قال سرقت ثيابي فقلت معى دفائير فإن شئت قرضا وإن شئت صلة فأبى . فقلت : تكتب لى بأجرة ؟ قال : نعم فأخرجت دينارا فقال : اشتر لى ثوبا واقطعه نصفين يعنى : ازارا ورداء وجئنى بورق فكتب لى هذا)

وروى الذهبي عن اسحق بن راهويه (كنت وأحمد باليمن عند عبد الرازق وكنت أنا فوق الغرفة وهو أسفل فاطلعت على أن نفقته فنيت ، فمرضت عليه فامتنع فقلت إن شئت قرضا وإن شئت صلة فأبى فنظرت فإذا هو ينسج التلك ويبيع وينفق)

فالرجل في الروايتين السابقتين يرفض الصلة من الناس مهما
 أعسر !! ثم يرتقى فيرفض القرض وهو عار لا يجد ما يستر به نفسه
 بل يأتزر بجدران بيته فلا يطلع الناس على شيء من جسمه والقرض
 جائز ما في ذلك شك !! ولكن في منطق أحمد لا يليق بصحيح معافي
 قدر على العمل فلان يكدح ويكد خير من أن يقترض ، ثم متى يسد
 هذا القرض ؟ وغده كيومه لا يسعفه بغير الضروري الشحيح !!!!
 فالعمل اذن طريق المال !!! وبغير العمل لاتهدأ نفس تتحرر عن الشبهات
 وتطمح الى مستوى خلقى كريم !! !!

المال الحلال شعار أحمد ولن يكون حلالا الا اذا خلص من كل
 شائبة فلا صلة يكدرها من ولا قرض يتعذر معه رد ووفاء !! !!
 واذا ذلك تطمئن النفس فلا تجزع وهذا الخاطر فلا يرتاع ، قال عمر
 ابن صالح الطرسوسى .. سألت أحمد بن حنبل : بم تلين القلوب ؟
 فنظر الى أصحابه وكان السؤال أعجبه وأطرق ساعة ثم رفع
 رأسه فقال : يا بنى تطمئن القلوب بأكل الحلال !! !! فمرت ببشر
 ابن الحارث فسأته .. بم تطمئن القلوب ؟ فقال ألا بذكر الله تطمئن
 القلوب ؟ فقلت له لقد جئت من عند أبى عبد الله الآن قال .. فماذا
 قال لك ؟ قلت قال : بأكل الحلال فقال جاءك بالجوهر جاءك
 بالأصل (١)

فأكل الحلال أساس الاطمئنان لأنه يجعل صاحبه مستريح النفس
 لا يؤذيه ضميره بتأنيب ، ولا تزعجه هواجسه بشر !! !! ولن تطمئن
 القلوب بذكر الله الا اذا كان الذاكر متحرزا عن الحرام ، منصرفا
 الى الحلال متذكرا أوامر ربه ونواهيه ، واذا ذلك يطمئن قلبه بذكره
 وتسبيحه وكم من ذاكر يسبح الله ولا يطمئن له قرار لأن سلوكه
 الدنيوى لا يمهده له طريق الهدوء والاطمئنان !! أما الذاكر الذى
 يطمئن قلبه بذكر ربه كما ذكرت الآية الكريمة فهو صاحب الخير
 المحض والحلال الصريح

واذا كان أحمد قد تخرج من القرض المباح فقد تخرج أيضا
من ولاية القضاء باليمن !! !!

وهو في تخرجه من قبول هذا المنصب الدينى الخطير يختلف
عن أبى حنيفة رضى الله عنه في رفضه القضاء على عهد أبى جعفر
المنصور اذ أن الامام الأعظم رضى الله عنه كان لا يثق في دولة الخليفة
العباسى ويرى الرضا بالقضاء في حكومة ظالمة لا يمكن أن يؤدى الى
تنفيذ أوامر القاضى العادل ونواهيهِ ، فالرفض هنا يرجع الى الخوف
على العدالة ، والحرص على احقاق الحق ، ولكن أحمد حين رفض
قضاء اليمن قد نظر الى شئ غير ذلك ، اذ خاف أن يشغله القضاء
عن تلقى الحديث وروايته وهو لم يكابد عناء السفر من بغداد الى
اليمن الا لينهل من معين المحدث الراوية عبد الرازق بن همام !! !!
فرواية الحديث في تقديره أهم من التصدر للقضاء مهما عاد عليه
بالجاه والمال على أن الشافعي رضى الله عنه هو الذى رشحه للقضاء
منتزها فرصة وجوده باليمن ليصيد عصفورين بحجر واحد ولكن
هيهات !! !! فهو يتوجه برغبته الى زاهد متقشف يرى أن الأعمال
بالنيات !! !! وربما فسدت النية قليلا بالاتجاه الى عرض من أعراض
الحياة !! فيجعل رحلته خالصة للحديث الشريف ففي ذلك راحة
الفؤاد واطمئنان الضمير !! !! ونحن لانرى في قبول قضاء اليمن
حرجا دينيا أو مشقة دنيوية بل ربما كان ذلك في مصلحة القضاء
والمتقاضين اذ يتولى أمورهم فقيه مخلص ورع يحرص على أن يقيم
الموازين الصحيحة دون نظر لغير الحق الصريح ، نقول ونحن لانرى
في قبول قضاء اليمن حرجا أو مشقة اذا كنا بازاء رجل طامح يحرص
على المجد والسمعة !! ولكننا بازاء أحمد بن حنبل وكفى !! !!

وهناك أمر جدير بالنظر فقد ذكر الرواة أن أحمد قد اتفق مع
يحيى بن معين على الذهاب الى اليمن للرواية عن عبد الرازق فاتفق
أن قابلاه بمكة في حجه فقال يحيى لقد توفر الجهد ، لناخذ عنه
الحديث هنا دون حاجة الى مشقة السفر أو صعوبة الطريق ولكن

أحمد يصر على الرفض ويصمم على الارتحال وأستاذنا الكبير محمد أبو زهرة ، يعلل ذلك فيقول في كتابه ص ٢٥ (١) (لقد لاحظت له الفرصة التي تغنيه عن الهجرة فلم ينتهزها وآثر أن يضرب في الأرض مهاجرا في سبيل العلم ، ولم يرد أن يأخذ رياء سهلا تسهله المصادفة ، وتقربه الفرصة خشية أن يتعود ذلك فلا يركب في سبيله المركب الصعب ويحتمل العيش الخشن ، وقد تحقق ما احتسب فسافر الى صنعاء وقاله العيش الخشن والمركب الصعب اذ اقطعت به النفقة في الطريق فأكرى نفسه من بعض الحمالين الى أن وافى صنعاء)

هذا قول أستاذنا الكبير محمد أبي زهرة ونحن نخالفه ولا نراه اذ أنه يجعل التعب والمشقة هدفا مقصودا فأحمد قد تمكن من رواية الحديث بمكة عن عبد الرازق ولكنه أراد أن يتعب وينصب فسافر الى اليمن دون موجب غير النصب والاجهاد ، ولو كان الأمر كذلك لكان أحمد مخطئا في تصرفه اذ لا يعقل أن يبذل عاقل ما عناء جاهدا دون طائل . ولكن ابن حنبل رأى أن مدة الحج محدودة موجزة فهي لا تزيد عن أشهر قلائل يتفرغ فيها الحاج الى مناسكه وصلواته وتليياته ولو حدثه عبد الرازق بمكة ما استطاع أن يغني منه جميع ما يريد .

واذن فلابد من الذهاب الى اليمن مهما تكبد المشاق والصعاب !! وهناك يتلقى حديث الرسول دون ما عجلة واسراع وقد ذهب الامام الى اليمن ومكث بها سنتين طويلتين وقال فيهما ما يريد ورجع غانما ظافرا فهل كانت مدة الحج التي لا تزيد اذ ذاك عن شهرين يقضيان بمكة ثم يرجع كل الى طيته ، كميلة بأشباع حاجة أحمد ؟ هذا مالا نظنه أو نرتئيه !! !!

وقد رزق الامام حافظة قوية ساعدته على مهمته الخطيرة في الرواية والتدوين فكان يوجه كل انتباه الى حفظ الاحاديث اسنادا ومتنا

وأبدى من ضروب المهارة في هذا المضمار عجباً أى عجب !! وليس له نظير في ذلك غير معاصرة الإمام البخارى فكأن الله عز وجل قد رزق هذين الامامين ، حافظتين قويتين ليصون تراث نبيه ويحفظ آثار الشريعة الكريمة هذا الى شغف زائد لديهما رضى الله عنهما بالاستيعاب والاستظهار واذا تحولت الرغبة الى شغف وكلف فقد سهل الصعب ودنا البعيد !!

حدث الامام أحمد عن نفسه قال : « كنت أذاكر وكيعاً فربما ذكر تسعة أحاديث أو عشرة فأحفظها فاذا دخل قال أصحاب الحديث أمل علينا فأملها عليهم فيكتبونها !!

وقال الخلال (١) حدثنا أبو اسماعيل الترمذى ، سمعت قتيبة ابن سعيد يقول : كان وكيع اذا كانت العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل فيقف على الباب فيذاكره فأخذ وكيع ليلة بمضادتي الباب ثم قل : يا أبا عبد الله أريد أن ألقى عليك حديث سفيان قال : هات قال تحفظ عن سفيان عن سلمة بن كهيل كذا !! ؟ قال نعم حدثنا يحيى فيقول سلمة كذا وكذا فيقول وكيع لا ثم يأخذ في حديث شيخ شيخ قال فلم يزل قائماً حتى جاءت الجارية فقالت (قد طلع الكوكب) .

فوكيع لا يستصحب من تلاميذه غير أحمد وهو يحدثه عن الأثر عن طريق فيحدثه التلميذ عنه من طرق ثم يسأله أحمد عن أحاديث فلا يعلمها ويظل يروى من محفوظه ما غاب عن أستاذه حتى مطلع الفجر ولن يتاح ذلك لغير حافظ موهوب !!

وقد يكون حفظ المتن ميسوراً سهلاً اذا قيس بحفظ الاسناد فانت تستطيع أن تحفظ عشرة أحاديث في وقت واحد اذا جردت عن اسنادها المتصل فاذا اقترنت به شاهدت أسماء كثيرة متشابهة متداخلة وقد يختلط اسناد باسناد فلا يفتن الى صحة الرواية غير باحث

(١) ترجمة الذهبي ص ١٤.

خير !! وأحمد كان لا يحفظ حديثاً بغير اسناده وقد يكون للحديث الواحد عدة أسانيد يحفظها المحدث دون عناء (١) قال عبد الله بن أحمد : قال لي أبي خذ أى كتاب شئت من كتب وكيع فإذا شئت أن تسألني عن شيء من الكلام حتى أخبرك بالاسناد وإذا شئت بالاسناد حتى أخبرك بالكلام واذن فالمتن والاسناد سواء في حافظة الامام !!

هذه حافظة أحمد تقدمها لمن يريدون أن يعرفوا نعمة الله على عبده في قوة الذاكرة وصحة الاستيعاب وتقرنه في ذلك بمعاصرة الامام البخارى فقد توطأ رجال عشرة على تخطئته وأعدوا مجلساً لذلك فأخذ مائة حديث فقبلوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن كل اسناد لغير أصله وقام كل مزور من العشرة يروى ويسأل فيقول الامام البخارى لا أعرف حتى اذا فرغوا من اسئلتهم الكاذبة اندفع البخارى يقول .. روى الاول .. كذا وصواب متنه كذا ، وصواب اسناده كذا ومازال يصحح ويمحس حتى رد كل اسناد الى متنه وخسئت نفوس ظالمة راحت تعتمد التدليس والايقاع (٢) هذا هو البخارى وذلك أحمد فهل لهما الآن من مثيل !! ؟

ومع هذا الحفظ الدقيق كن ابن حنبل لا يروى الا من صحيفة أو كتاب ، انه يخاف أن يزل لسانه فيروى حرفاً على غير وجهه أو يزيد كلمة ليست في موضوعها أو ينقص لفظاً يحتاج اليه السياق فلا بد من كتاب يقطع الشك - على بعده - فهو مهما اتعب في الحمل والبحث أيسر من خطأ ينسب لصاحب الدعوة !! وتلك تتزلزل لها الجبال وتثور البراكين !!

يا لله !! يدخل المسلم مسجد بغداد فيرى علماء الحديث يروون من غيب صدورهم ما يحفظونه وفيهم من يباهى بقدرته على الاستظهار والتحصيل وهو لا يبلغ معشار أحمد في سلامة حفظه وقوة ذاكرته والامام المتخرج الدقيق لا ينطق بما يحفظ بل يحمل كتبه الى مجلسه

(١) طبقات الشافعية للسبكي

(٢) هبة الايام ص ١٠ بتحقيق الاستاذ محمود مصطفى .

فإذا سئل بحث وقرأ في أدب وخشوع وقد يجيب بحديث رواه
عشرات وعشرات من المرات وهو في تحرجه لايجوز أن يقرأ على الناس
من غيب صدره ذلك حرص عجيب !!

قدم عليه رجل من مرو يسأله عن حديث حار في روايته الرواة
فأمر ابنه عبد الله أن يحضر له كتاب الفرائد لبحث عن الحديث فيه
ولكنه لم يجده فقام بنفسه وأحضر الكتاب وكان عدة أجزاء وجعل
يشد الحديث حتى اذا وجده قرأه لطالبه !!

والرجل يعجب لتواضع امام ضربت بقوة حافظته الأمثال ومع
ذلك يعتصم بالتثبت ويحرص على الكمال ولو مررت بمجلس أحمد
فماذا أنت واجد ؟ ستجد رجلا نظيف الثوب حسن السميت ينطق
بالكلمة في خشوع وأناة فاذا سكت قليلا رفرت عليه هيبة وضئنة
فاتجهت اليه الانظار في سكوته كما تتجه اليه في درسه وكل انسان
يستشف من قسمات هذا المحيا الهادئ معاني رائعة ترتفع بصاحبها
ارتفاعا كريما . فأحمد في هدوئه الساكن يعط بصمته الهادئ وطابعه
الرضى ويوحى للمتفرس المتأمل بما يملأ فؤاده حبا وهيبة فيتمنى لو
أطال النظر واستشف وفي الوجوه وجوه تديم اليها النظر فتزداد لها
اعظاما واجلالا فكأنها كتاب مدون تقرأه صفحة صفحة فتتيح لك
سطوره من المعاني الجليلة مالا تجدده في سفر مرقوم !! !!

قال ابن أبي حاتم...سمعت عبد الملك الميموني يقول... ما أعلم
انى رأيت أحدا أنظف ثوبا ولا أشد تعاهدا في نفسه وفي شارب
وشعر رأسه وشعر بدنه من أحمد بن حنبل !! !!

ونحن نقول لقد وصف عبد الملك الميموني المظهر الحسى المائل
للعيان ولو مضى ببصيرته الى المعنى الأدبى الكامن فى الأطواء لقال...
ما أعلم انى رأيت أحدا أقفى سريرة وأعز تواضعا وأصدق تقوى
وأخلص عقيدة من أحمد وهذا ماكان !! !!

منهج واضح

أحمد امام هل السنة !!

هذا وصف الامام الذائع ولن تجد وصفا ألزم بصاحبه منه !!
فأنت لو حاولت ان تجمع خصائص الرجل في كلمة يسيرة صادقة
ماوجدت أصح من هذا الوصف الوجيز !!

أحمد امام أهل السنة فهم جميعا يلوذون به ويتبركون باسمه
ويتهافتون على آثاره ، ويتوجهون بذكره الى الله قربانا ودعاء !!
ولن يكون ذلك لغير امام مكين !!

قال أبو ثور في أحمد بن حنبل (١) لو أن رجلا قال ان أحمد
ابن حنبل من أهل الجنة ما عفى على ذلك ، وذلك أنه لو قصد
خراسان ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح ولو قصد
الشام ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح فهذا اجماع
وكذلك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح
فهذا اجماع ولو عفى هذا على قوله بطل الاجماع .

فرجل يحرز هذه الثقة في مختلف بلاد الاسلام لابد أن يتبوأ
مكانة الامامة من النفوس بحيث لو اصدر رأيا فالقول ما قالت حزام !!
والصلاح الموصوف به أحمد في هذا القول لا يقف عند الورع
والتقوى كما قد يتبادر في بعض الاذهان ولكنه صلاح في الفقه
وصلاح في الرواية وصلاح في المسلك والمذهب وصلاح في كل شيء
يتسم به رجل كبير .

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة (١) : كان أحمد رجلاً صالحاً .. فهو المحدث لأنه الرجل الصالح وهو الفقيه الذى غلب وصفه بالصلاح وصفه بالفقه ، بل ان صلاحه كان يمنعه من السير فى فقهه الى أقصى مداه ، فكان يتوقف حيث يسير غيره ، ويتردد حيث يجزم سواء ، ويحجم بالمعنى حيث ينطق غيره ، ويسكت عن الفتوى حيث يسارع سواء ، ورجل عرف بصلاحه لدى جمهور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لا بد أن يكون له الصوت المسموع والرأى الجهير وقد يصدر حكمه عن زيد من الناس فيصبح قضية مسلمة لا تقبل الجدل، ولو كان لرجل من المكانة قدر كبير فى نفوس الناس وحكم عليه أحمد بشيء مما يريب لتبددت مكاتته فى الهواء ونظر اليه الناس بمنظار أحمد فأشاحوا عنه ممرضين .. .

قال عمر بن الحسن القاضى .. سمعت أبا يحيى الناقد يقول .. كنا عند ابراهيم بن عرعة فذكروا على بن عاصم فقال رجل : أحمد بن حنبل يضعفه فقال آخر وما يضره ذاك كان ثقة ؟ فقال ابراهيم بن عرعة .. والله لو تكلم أحمد بن حنبل فى علقمة والأسود لضرهما (٢) .. ومعلوم ان أحمد لا يتكلم فى رجل ما عن هوى مغرض ، بل ان ميزان الترجيح فى يده لا يخرج عن الكتاب والسنة .. فقوله قول الشرع .. وبذلك كان الوصف السابق أصدق أوصافه عند الموازنة بين الألقاب والصفات .

وكيف صار امام أهل السنة وعلى أى طريق سار .

ان الامام قد أشرب منذ صغره حب محمد صلى الله عليه وسلم واتخذة مثله الأعلى ورائده العظيم ثم تتبع آثاره من قول وعمل فأمن بهما إيمان المتحمس النغور ثم تحولت هذه الآثار دماً يتدفق فى عروقه وعصبا يمتد فى بنائه فهو يصدر عنها فيما يأتى ويدع ، وأنت تستطيع أن تعرف رأى

(١) ص (١) من كتاب ابن حنبل

(٢) ترجمة أحمد للحافظ الذهبي

أحمد في مسألة من المسائل « اذا رأيت حديثاً بوياء ، يتحدث عنها في مسند أحمد وان لم تجد النص الفقهي له في ذلك فلحديث مذهبه .. والأثر قبلته ، ولولا السنة المطهرة مارأينا مئات الكتب في مذهب أحمد ولذلك تفصيل بين سيحىء بعد حين .. فقد حفظ الرجل آلاف الأحاديث عن رسول الله ، وكم في الناس من حفاظ كثيرين ولكن شتات بين حفظ وحفظ .. وفرق بين اتجاه واتجاه ، فقد تجد أئسا يلمون بالأحاديث، ويستظهرون الآيات فإذا استمعت إليها ، راعت النهم الزائد في التحصيل وبهرك الاطلاع النواسع على الأثر الكريم .. ولكن ذلك لا يمدد الحفظ والتسميع وقد يجبر الى المباهاة العريضة والتطاول البغيض ..

لم يكن أحمد من هؤلاء الحفاظ وحاشا أن يكون ؟ ولكنه كان يحفظ الحديث فيخلطه بوجدانه ويمزج به مشاعره وأحاسيسه فإذا قال فعن هديه واذا فعل ففى ضوئه .. ومن ثم فقد كان يتدبر الأثر ويتأمله ويرى طاعته حتما مفروضا وواجبا مقدسا لا يحيد عنه قيد شعرة مهما أجهده الأمر وضاق به السبيل ..

اشتد عليه المرض في آخر ساعاته فكان يعض على شفتيه ويتحمل مرهقات الأوضاع في كبت كظيم ولا يسمح بأنة ملتاعة تسرى عنه بل يجاهد في منعها لأنه روى في الأثر عن طاووس أن رسول الله كان يكره الأئنين !!!

وتثقل عليه العلة فلا يستطيع أن يقوم بما كان يقوم به من اكمال الوضوء على مذهبه الدقيق فينادى ولديه ويشير عليهما أن يخللا بين أصابعه وأن يغسلا الظاهر والباطن لأنه روى سنة تخليل الأصابع عن رسول الله !!

وينهض للصلاة في آخر أيامه ، فيدعو ابنه ليسنده في قيامه وركوعه وسجوده وكان في القعود متسع عن هذا الارهاق الممض !! ولكنه يعلم ان الأثر النبوى يفضل صلاة القائم عن صلاة القاعد !! فالقيام أولى به دون القعود !!

لسنا نرمى الامام بالتشدد والتزمت فذلك يكون حينما يوجهه على غيره ومذهبه الفقهى يرى أن الدين يسر لا عسر ويبيح الرخصة للمريض عند الاحتياج ولكنه يلزم نفسه وحده بأشياء يرى فيها راحة لوجدانه واشباعا لعاطفته اذ أن مخالطة السنة لدى من يهيم بها هيام أحمد خطب جلل وحادث خطير هذا هيامه بالسنة فكيف هيامه بصاحبها عليه السلام

الحق ان أحمد كان متيما بأحمد وقد عد من حظوظه السعيدة أن يسمى به فى طقولاته واحتسبها منة جزيلة تضاف لأمه وأبيه بوافر الحمد وجزيل الثناء وكان ميلاده فى ربيع الأول فالأول سعيدا يتيمن به ويراه منحة عالية من السماء ولعل روحه فى ملاها الأعلى تزغرد مبتهجة وقد صعدت الى بارئها فى الثانى عشر من ربيع ! لذلك لم يكن عجيبا أن يتسرى احمد على غير حاجته ، كما تسرى الرسول وان يسمى بناته بفاطمة وزينب كما سمي الرسول وأن يسمى حفيديه بالحسن والحسين كما فعل الرسول أيضا ، وتلك أمور لها دلالتها الواضحة ومرماها الشرف !!!

لم يكن عجيبا أن يحتجم أحمد فيعطى الحجام ديناراً مع أنه يفضل درهما واحدا ولم يكن الامام كثير المال فينفق عن سعة ولكنه روى أن الرسول أعطى للحجام ديناراً فليفعل ما فعل الرسول .. ام يكن عجيبا أن يمتنع عن الجلوس للحديث حتى يبلغ الأربعين لأنها سن التبليغ والهداية واذا كان الشافعى وأبو حنيفة وأضرابهما قد جلسوا للتدريس قبل هذه السن فما يفيد ذلك فى شيء لأنه يقتضى بالرسول !! وقد بلغ رسالة ربه بعد الأربعين !!

وفى محنته العصبية يوم ان انهالت على جسده الناحل سياط الظالمين تحرق بدنه وتشوى ظهره كان محمد صلى الله عليه وسلم عزاءه وسلواه فقد احتفظ بثلاث شعرات تأكد أنها من شعر الرسول فضعها الى ثوبه واعتقد أنه سيلقى الله فى محنته وسيكون هذا

الأمر العزيز شفيعه حين يقدم على خالقه !! ثم انتهى العذاب وعاشت
النفس الهادئة مطمئنة فماذا صنعت بالشعرات الثلاث ؟

لقد كتب الامام في وصيته الأخيرة راعبا أن توضع شعرة في
عينه اليمنى ، وثانية في عينه اليسرى وثالثة في فمه ثم يحمل الى
مضجعه مدججا بسلاح لايفل .. ومثريا بكنز لا يفنى وذلك الكنز
الثمين هو شعرات رسول الله !!

ليت شعري اذا لم يكن هذا حبا خالصا فأين الحب الأكيد ؟
واذا لم يكن في ذلك ثقة تامة بسحمد فأين تكون الثقة ؟

ان علماء التحليل يجعلون من الرموز البعيدة دلائل كاشفة لمعنى
قريب فهل يكون في دنيا الوله والكلف رمز أبلغ من شعرات ثلاث
يقدها كلف عميد ؟

ثم ما حاجته الى الخضاب ؟ وهو عالم يرى ان الشيب في الاسلام
تاج وضيء لا تبلغ منزلته التيجان ؟ !! لقد اختضب رسول الله في
الثالثة والستين فلا مناص من أن يحتديه وحذا الخضاب ان فمله
محمد فهو شيء حبيب !!!

هكذا كان أحمد وما أحسن ما كان !

ان الذي يدقق في التزام هذه الهيئات اليسيرة من المحسات
لا بد أن يدقق في التزام كل رائع جليل من المعنويات ، وقد كانت
أخلاق أحمد محاكاة متواضعة لأخلاق الرسول وكيف لا يحاكيه وهو
يروى عنه (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فوق أنه يحفظ قول
الله وانك لعلی خلق عظیم .

جاء في تاريخ الذهبي عن أحد أصحاب أحمد في وصف مجالسه:
لم أر الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله كان مائلا اليهم
مقصرا عن الدنيا وكان فيه حلم ولم يكن بالمعجول ، بل كان كثير
التواضع تعلموه السكينة والوقار واذا جلس مجلسه بعد العصر

لا يتكلم حتى يسأل ، وإذا خرج من مجلسه لم يتصدر بل يقعد حيث انتهى به المجلس (١) وتلك بعض شمائل رسول الله .

على أننا لا نلتبس هذه الشمائل في تزكية صديق ، أو رواية محب ولكننا نلتبسها في وقائع مشهورة لا سبيل إلى إنكارها بحال ، وهي بواقعهما الصادق أرجح في الدلالة على عنصر صاحبها من كل تزكية تقال :

لقد رهن عينا له في دين عليه وحين استطاع وفاء الدين ذهب إلى الدائن فوفاه دينه ولما أراد أن يرد إليه رهنه التبس بنظير مشابه له لا يكاد يفرق عنه في شيء فعرض العينين على أحمد ليختار ما يشاء !! ولكن الامام يحتاط فيرفض أن يأخذ شيئا لا يتأكد من ملكيته ويترك العينين لدى الدائن ! أليس هذا السلوك المتحرز سيرا على منهج الرسول وعبقا من روضه الفواح ؟ !

وثانية تقال ولن نجد مثيلها في دنيا الناس وإن طال الفحص تاريخا بعد تاريخ ، وأمة وراء أمة حتى لتعد من الغرائب النادرات

قال أبو بكر الخلال : (أخبرني أحمد بن عمر قال لما ماتت زوجة أحمد قال لامرأة عندهم اذهبي إلى فلانة ابنة عمي فاخطبيها لي من نفسها ، قالت فأتيتهما فأجابته فلما رجعت إليه قال آكأت أختها تسمع كلامك وكانت بعين واحدة ؟ فقالت له نعم قال : اذهبي فاخطبي تلك التي بعين واحدة فأتيتهما فأجابته وهي أم ولده عبد الله) .

فهل ترى أغرب من ذلك وأندر ، رجل يتقدم إلى خطبة فتاة ، جميلة كاملة صبيحة فتجيبه إلى طلبه برغبة واعجاب ثم يعلم أن لها اختادمية عوراء وقد سمعت حديث الخطبة فما نطقت بشيء فيقول في نفسه : ما شعور هذه الشوهاء ؟ وأي أسف تضرم في جوانحها دون أن تجد له اطفاء يتاح !! ان عليه أن يغفل رغبته في الجمال والحسن لينقذ حزينه أليمة حاربها القدر بأوجع سلاح !! ثم يتقدم إلى

(١) ترجمة أحمد الذهبي بتحقيق الاستاذ شاکر ص ٣٥

الموراء فيرد لها اعتبارها راضى النفس قرير القواد !! أليست هذه بعض شمائل النبوة دون نزاع ، يقول الاستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعى (١) معللا ما نحن بسبيله من عجب واعجاب (هناك ذاتان لكل مؤمن ، احدهما غائبة عنه والاخرى حاضرة فيه وهو انما يصل من هذه الى تلك فلا ينبغي أن يحصر السماوية الواسعة في هذه الترابية الضيقة ، والقبح انما هو لفظ ترابى يشار به الى صورة وقع فيها من التشويه مثل معانى التراب والصورة فانية زائلة ولكن عملها باق وبهذا الكمال فى النفس وهذا الأدب قد ينظر الرجل الفاضل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة لا الى الشوهاء ولكن الى الحور العين ، انها فى رأى العين رجل وامرأة فى صورتين متنافرتين جمالا وقبحا أما فى الحقيقة والعمل وكمال الايمان الروحى فهما ارداتان متحدتان تجذب احدهما الأخرى جاذبية عشق ولذلك اختار الامام أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة فسأل من أعقل؟ فقيل الموراء فقال زوجنى اياها ، فكانت الموراء فى رأى الامام وارادته هى ذات العينين الكحيلتين) .

وقد أضاف الأستاذ الرافعى الى مارواه أبو بكر الخلال أن الامام سأل عن أعقل الاختين واختارها ولم نرد ذلك فيما قرأناه فلا بد أن يكون الرافعى قد قرأه حيث لانعلم ، وهو يضيف جديدا الى ميزان الامام وتقديره فهو يثبت اعتزازه بالعقل الانسانى والكمال النفسى ، دون نظر الى هيكل متغير قد يبدو جذابا رائعا فى حين ، ولكنه يرتد الى شحوبه المتضعف مع الزمان ، ولا يتجه الى ذلك من الناس غير من يتخلق بأخلاق الانبياء .

اترك هذه الحادثة العجيبة وانظر الى بعض ساوكة فماذا تجد ؟

لقد كان الرجل يحب الوحدة ويخلو الى نفسه أيا ما وأسايع والوحدة وحدتان : وحدة فارغة جوفاء تمر بالمعزل دون أن يقطع منها نمرة مبتغاة ، وكأنه فى نوم متصل لا يهديه الى خاطر رفيع أو يسعفه

بتأمل لذيد ومثل هذه الوحدة لا تدوم بل إن صاحبها لينفر منها إن تطاولت به الأيام ، ولا يصد الى تكرارها فيما يمتد من عمره الباقي اذا لم يستشعر لها فائدة تلمس ، أما الوحدة النافعة الهادية فهي ذات التأمل والتدبير وقد كان الأنبياء والمرسلون يخلون الى أنفسهم ليالي وأياما ويتعبدون الاسابيع ذوات العدد في بعض المغارات والكهوف فهل كان فرارهم من الناس غير ضرب من التأمل الروحي لا تنغصه الضجة الصاخبة أو يكدوه الزحام المحتشد ؟ بل يظل التأمل متصل السبحات بعاليه يسלט أشعة فكره على ماحوله فيزداد معرفة ويرق شعورا ويعمر ايمانا ، قال عبد الله (١) بن أحمد (كان أبي أصبر الناس على الوحدة لم يره أحد الا في مجلس أو في حضور جنازة أو عيادة مريض وكان يكره المشي في الأسواق وقال : خرج أبي الى طرسوس ماشيا وخرج الى اليمن ماشيا وحج خمس حجج ثلاثا منها ماشيا ولا يمكن لأحد أن يقول أنه وجد أبي في هذه النواحي يوما ما الا اذا خرج لصلاة الجمعة ! ثم يعقد موازنة بين والده والصوفي شعورا ويعمر ايمانا ، قال عبد الله (١) بن أحمد (كان أبي أصبر الناس على الوحدة وبشر رحمه الله فيما كان فيه لم يكن يصبر على الوحدة فكان يخرج الى ذا ساعة والى ذا ساعة !) ونحن لا نلزم الناس بالانفراد في زمن سريع تزدهم به الأعمال وتتكاثر الضروريات فالاسلام دين عمل وكفاح ، ولم يدع أحمد للعزلة في يوم ما كما دعا اليها المتصوفون من الغلاة ولكننا نقول ان رجل الفكر وحده بحاجة ماسة الى الانفراد الوقتي ليجمع خاوطره ، ويرصد تأملاته ، واذا تحققت مآربه في العزلة ترك وحدته وانصرف الى قومه يهديهم سواء السبيل ، وأحمد من رجال الفكر في الاسلام له مذهبه الفقهي وسلوكه النبوي فلا عجب اذا انفرد عن الناس ليالي وأياما منصرفا الى تأملاته وعباداته وتلاوته فذلك خير عميم !!!

على أن الرواة يذكرون أن أحمد رضى الله عنه كان يصلى كل

يوم قبل المحنة ثلثمائة ركعة فلما ضعف بدنه من العذاب ووهنت صحته من الكبر جعل يصلى كل يوم مائة وخمسين ركعة وكان يختم تلاوة القرآن مرة كل سبعة أيام !! ذلك ما يكون أثناء اتصاله بأهله وتلاميذه ومريديه ، فاذا انفرد الى نفسه فلا بد أنه فى عزلة المؤمنة يضاعف ما اعتاده بين الناس ونحن لا نرى عزلة موحشة لمصل يقوم وقارىء يتأمل !!!

ومما يتصل بوحده وفراة قرينا لها فى الهدف والثمره حبه للظلام وترحيبه المفرط بسكون الليل وهدوئه وهو يقول فى ذلك : (الظلمة أجلى للقلب) وذلك ان امتداد الطرف فى سواد متصل يحجب الأشياء والشخص يتيح للفكر أن يواصل سبحاته دون عائق ، وللقلب أن يستشف بوادره فى هدوء شامل ، ومن هنا كان الامام الشافعى والامام البخارى معا مستقلين فى أثناء الليل فى هدأة الظلام ثم يستعرضان بعقولهما ما قرآه ووعياه أثناء النهار فاذا احتاجا لبعض التذكرة أوقدا المصباح لحظة وراجعا للأوراق ثم أطفآه وسبحا فى تأملاتهما العلمية والسكون ممتد ، والظلام متصل ، قال أبو محمد بن أخت الشافعى عن أمه قالت ربما قدمنا فى ليلة واحدة ثلاثين مرة المصباح بين يدي الشافعى وكان يستلقى ويتذكر ثم ينادى يا جارية ، هلمى مصباحا فتقدمه ويكتب ما يكتب ثم يقول : ارفعيه ، فقبل لأحمد ما أراد برد المصباح ! فقال الظلمة أجلى للقلب (١) . .

ورأى الامام فى الفتوة يمثل اتجاهه وصبره ومغالته ، فالفتوة قد شغلت كثيرا من الباحثين فى تفسيرها وايضاح معانيها ، واهتم بها الأدباء والمفكرين والمؤرخون ، وأكثرهم يحصرها فى شيئين : فى الشجاعة البالغة والكرم المفرط ومن ثم كان الامام على رضى الله عنه فتى الفتيان عند العرب !! وربما ألف أنصار الفتوة من بينهم جماعات تقاسم الشجاعة والكرم لتبعث هاتين المحمدتين فى العالمين .

وذلك رائع جميل ولكن احمد بن حنبل لا يحصر الفتوة في هاتين الصفتين بل يراها كما نص على ذلك « ترك ما تهوى لما تخشى » ، واذن فالفتوة في رأى الامام تتجه أول ماتجه الى مغالبة النفس ومجالبة الشيطان فأحمد يعرف الصراع الدائم في أطواء النفس البشرية بين الفضيلة والرذيلة ويلبس أثر هذه الحرب الضروس في النفس المترددة المتذبذبة التى لا تستقر على منهج فأونة تستجيب الى هوائها الخير فتتزع الى الكمال وأونة تركن في بؤرة الشر فتقول يا ويلتنا على ما فرطت في جنب الله ، وبين الارتقاء والهبوط في عراك لا ينقطع وتأنيب لا يريم !! والانسان فريسة سهلة لهذا النزاع الرهيب فالفتى كل الفتى في رأى أحمد من يقهر أهواءه وينتصر على نزواته ، فترك ما يهوى على لذته لما يخشى وبرهب !! وتلك هى الفتوة الشماء ...

وأحمد في رأيه ينزع مع الصوفية عن قوس واحدة فقد قال الجنيد رضى الله عنه : ان الفتوة هى أن تكسر الصنم الذى بينك وبين الله تعالى وهو نفسك وقال محمد بن على الترمذى : الفتوة أن تكون لربك على نفسك « ولدينا أقوال كثيرة تتخذ هذا النحو الحلقى فى تهذيب النفس وخشية الله !! وكلها تصدر عن نبع واحد هو كتاب الله » .

لقد كان أحمد امام السنة اذ حفظها من الضياع ونهض بتعاليمها خير نهوض وكان له فى صاحبها الأعظم قدوة حسنة فأثر هديه واتبع طريقه !! ومن ثم فقد بجله المسامون وعظموه و«رصفوه بالامام ...

مَصْبَاحُ يَظِيءُ

لو مددت يديك الى كتاب ألف في هذا العصر ودرسته دراسة فاحصة فانك تتقف على روح مؤلفه ، وتعرف بناييع ثقافته ولو لم تحط خبرا بأنبائه فقد أبانت لك كتابته مذهبه واتجاهه ولا عليك بعد ذلك أن تعرف أنه نشأ في مدرسة معينة وتثقف بثقة خاصة ، وسافر الى بعثة شمالية أو جنوبية !! كل ذلك قد وضح في تأليفه ، ولننزيدك معرفته احاطة بالرجل فأثاره أوضح دليل وأتم تعريف .

كذلك يكفي أن تمد يديك الى آثار أحمد وأن تدرسها دراسة فاحصة فستعلم مذهبه العلمى وتستشف عناصر تكوينه وروافد فقهه !! ثم تضعه في مكانه الطبيعى بين أرباب المذاهب والتأليف دون حاجة الى جهد شاق يصل بك الى أستاذ معين ومدرسة خاصة . فقد عرفت ذلك من أصدق خبر ، وأخلص دليل .

ولا نغنى بذلك أن حياة الامام اندراسية في نشأته الأولى مجهولة الأنباء ، خافية الطريق فقد عكف تلاميذه على تدوين أخباره وذكروا عددا موفورا من أساتذته وشيوخه !! وأطالوا فى تعداد مواقفه ومناحيه ، وكل ذلك فافع مفيد ، ولكن من يدرس آثار الرجل يستطيع بها وحدها أن يتعرفه تعرفا صادقا ولا سيما أنه ظهر فى عصر متنوع الثقافة مختلف المشارب ، وتحديد اتجاهه فى هذا العصر ضرورى لمن يريد أن يرسم خطوط حياته رسما يبرز الملامح المميزة وان أخنى السمات المشتركة كما نريد فى هذا النطاق !!!

لقد كان العصر العباسى لعهد أحمد مزدهما بشتى الثقافات الداخلية والخارجية فالترجمات اليونانية قد شقت طريقها الى عقول الباحثين والقارئین والقصاص الهنـدى قد وجد مكانه فى قـوس

الراغبين والدارسين والأدب الفارسي قد استعان بجاه الدولة وسطوة الرؤساء على أن يتبوا مقعدا عزيزا بين الآداب المختلفة للأمم من شرق وغرب ، وشيوخ العرب وفقهاء الاسلام لا يألون جهدا في انماء ذخيرتهم الغالية وصياتها ان تتغلب عليها ثقافة أجنبية فتزيحها عما تنشئ من السيطرة والاستعلاء ..

ولكل فريق أساتذة وكتب ومناظرات ومجالس • فالى أى مورد اتجه أحمد وفي أى ميدان جلى وبرز حتى أصبح امام الكثرة الكاثرة من الناس فى عصره دون مراة ؟

ابن الذين يقرءون مسنده ويروون فقهه يعرفون أنه كان بمعزل عن كل دخيل من الثقافة فلم يقدر مما تطلع اليه معاصروه من الفلسفة والمنطق ، وقد كان علماء الكلام وهم حماة العقيدة وذادة الدين ، يدرسون الفلسفة وطرق الجدل ليتخذوا منه سلاحا لا يفلى فى مقارعة الخصوم ومنازلة الملاحدة !! فلم ير أحمد أن يسير معهم فى طريق ، بل عكف على الكتاب والسنة وآثار السلف وفى هذه الدائرة جلى وبرز ، وأينع غرسه أكمل ابناء •

وفى الفصل السابق ذكرنا أثر الحديث وصاحبه فى توجيه أحمد وفى تكوينه فقد انتفع الامام أعظم انتفاع بما حفظ من الأثر وعلم من السيرة وجعل ذلك فى المرتبة الأولى بعد كتاب الله ، ثم اتجه الى آثار الصحابة وسيرهم فكافى موردا آخر لثقافته واتجاهه ، فدرس سيرة كل صحابى ، ووقف على آرائه وفتاويه ، ان كان ممن يروى لهم نصيب من العلم والافتاء وجعل ذلك فى المرتبة الثانية بعد السيرة والحديث !! ثم اتجه الى التابعين فدرس أقوالهم وعرف مواقفهم وكان لهم فى فقهه أثر واضح ، وفى سلوكه توجيه الاحتذاء والقذوة حتى وصفه عارفوه فقالوا عنه انه تابعى تخلف به الزمن ثم اتجه الى الخيرة من فقهاء الأمة الاسلامية فيما يلى التابعين فتخير من آرائهم ماوافق مزاجه وسار مع مشربه !! وهؤلاء ومن سبقهم هم شيوخ أحمد وأساتذته بهداهم اقتدى وفى طريقهم سار ...

على اننا نخص بالذكر معاصرا كريما كان له في توجيه أحمد
 شأن أى شأن ، ذلكم هو الامام الشافعى رضى الله عنه !! حتى عد
 بعض الفقهاء أحمد شافعى المذهب وذكره بين الشافعية في كتب
 الطبقات !! والحق أن تقدير الشافعى لأحمد واعجاب أحمد بالشافعى
 كان مما اشتهر وذاع وبرغم ذلك نجد أقوالا مكذوبة يرويها أصحاب
 المناقب عن الشافعى في أحمد ، وأخرى مدخولة يرويها قوم آخرون
 عن أحمد في الشافعى وكان كلا الأمامين لا يقدر صاحبه ولا بعتر
 بأخيه !!!

ان مبعث ذلك الدس البغيض .. هم رواة المناقب ومتعصبو
 المذاهب فقد قر لدى بعض المتزمطين أن مذهبهم وحده الصحيح
 وأن المذاهب الأخرى افك وافتراء لا تستند الى شرع ولا تعتصم
 بسنة وكتاب فأطلقوا ألسنتهم - جهلا وضيق أفق - في أصحابها
 وزادوا فاخترعوا لكل امام ينتمون له من الخوارق والكرامات
 ما لا يصدقه العقل وليتهم وقتوا عند ذلك بل قولوا كل امام ما لم
 يقل فنسبوا لمالك قولاً جارحا في أبى حنيفة ، ونسبوا للشافعى قولاً
 غير صائب في أحمد وكل ذلك افتراء بغيض ساق اليه التعصب
 المقيت ، وإذا كان بعض هؤلاء قد وضع الأحاديث المكذوبة عن محمد
 أفلا يستبجح أن يضع أفكا على لسان امام ؟!

على أن الثقة من الرواة ينقلون كل حق صريح لا يأتيه الباطل ،
 فهم يذكرون أن الشافعى كان اذا قال حدثنى الثقة انصرف القول
 لأحمد ، وأنه رشحه لقضاء اليمن حبا لذاته ، واحتراما لشخصه ، وأنه
 قال خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه ولا أروع ولا أزهد ولا أعلم
 من أحمد ، كما ينقلون عن أحمد انه قال ان الله عزوجل يبعث لهذه
 الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها ، فكان عمر بن
 عبد العزيز على رأس المائة الأولى وأرجو ان يكون الشافعى على
 رأس المائة الثانية فهل يعقل أن يقول بعد ذلك كما جاء في الحلية
 (استفاد منا الشافعى ما لم نستفد منه) ؟ (١) وغير ذلك كثير تضرب عنه .

(١) ج ٩ ص ١٧٠

ان من يدرس أخلاق أحمد لا يجزؤ أن ينسب اليه هذا القول الخطير . لقد كان الامام يتواضع مع تلاميذه فكيف يتشامخ على أستاذه ؟! واذا كان قد ترفع عن أن يسب أحمد بن أبي دؤاد عدوه وصاحب تعذيبه فكيف ينسب اليه سب صريح للشافعي أو لأبي حنيفة كما حدثنا بعض الروايات المزعومة ؟!

قد يجوز القول بأن أحمد عارض كثيرا من آراء أبي حنيفة ولكن كم بين الرأي والشخص من فروق ، وأحمد بعد ذلك امام العلماء ، والعلماء ورثة الأنبياء .

لقد كان أحمد تلميذ الشافعي وقد استفاد منه استفادة ذات أثر واضح في فقهه وتكوينه فالشافعي واضع أصول الفقه ، وأول من نقل الكلام من الجزئيات المتباعدة الى الكليات العامة ، وأول من رسم طرق الاستنباط الفقهي ، وحكى قواعد التعليل وأسباب الترجيح فأثره في الفقه ، كأثر الخليل في العروض وكل فقيه جاء بعده قد تأثر به واستلهم آراءه وأفكاره وأحمد في طليعة هؤلاء .

كان أحمد قد التقى بالشافعي في مكة وتدرسا بعض الأمور الفقهية فأعجب بأستاذه وأكبر مقامه ورآه جديرا أن يحتل المكانة الأولى في الدوائر العلمية لا بمكة فقط بل في بغداد عاصمة الاسلام، ثم رجع ابن حنبل الى مدينة السلام ليرى فقهاء الرأي في مدرسة أبي حنيفة يملئونها تعليلا وافتراسا فيقيمون أسئلة جدلية لأمر لم تحدث بعد ، ثم يجيبون عنها مستندين الى القياس والتأويل وقد تكون الاجابة غير موافقة لحديث يرويه أحمد ويعده أصحاب الرأي ضعيفا لا يؤخذ به ، مما ضاق به ذرع الامام صاحب المسند وكثيرا ما كان يخلو الى نفسه فيفكر في مدرسة الرأي التي انتشرت هذا الانتشار ببغداد وتبوأ رجالها مناصب القضاء والافتاء فأصبح أمر المسلمين في أيديهم يحلون ويحرمون كما يهديهم قياسهم واستباطهم ، ولعله كان يقول ماذا أظن هؤلاء ؟ .. أعلى حق هم أم على غير صواب !!! انهم يقيسون الشيء لا نعلمه بالشيء نعلمه وقد تكون

وجوه القياس غير مطابقة تمام المطابقة فتبعت الهواجس في نفس الفقيه المتشدد الصارم الذي لا يجيد قيد شعرة عن نص يرويه أو حكم سمع به من فقيه كبير .. مهما يكن من شيء لقد استخار الله وأقدم على كتب الرأي يتدارسها كما يتدارسها الناس واستمع الى مجالس أبي يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهما من كبار الأعلام في فقه أبي حنيفة .. ومع هذه الدراسة لوجوه القياس ومسائل الخلاف فإن نفسه تنأى به عما يقرأ ويعلم ، ويحس أن توهين النص وتضعيفه لأمر ما مجازفة خطيرة لا يجوز أن يتعمدها بحال وفي هذا القلق الساهد جاء الشافعي الى بغداد وقد شعر سلاحه وأخذ عدته فناظر علماء الرأي وانتصر لمدرسة الحديث انتصارا رفع من شأنها وأعاد لها مكانتها المحترمة في مدينة السلام ...

قال الاستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق في كتابه عن الشافعي (١) كان طبيعيا أن يجادل الشافعي عن أستاذه (مالك صاحب مدرسة الحديث) وقد نهض لذلك قويا بعقله قويا بعلمه ، قويا بفصاحته قويا بشبابه في عنفوان وحمية عربية ، وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعي عن مالك ومذهبه عن محمد بن الحكم قال : سمعت الشافعي يقول: قال لي محمد بن الحسن : صاحبنا أعلم من صاحبكم - يعني أبا حنيفة ومالكا - وما كان على صاحبكم أن يتكلم وما كان لصاحبنا أن يسكت .. قال ففضبت وقلت نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك أو أبو حنيفة ؟ قال : مالك لكن صاحبنا أقيس فقلت : نعم ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه من أبي حنيفة فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام) .

هذه صورة تمثل وجهتي نظر مختلفتين ولسنا نغني أن جميع المناظرات كانت موازنة شخصية بين امامين كما في المثال السابق ولكنها في أكثرها موازنة بين رأيي امامين في مسألة جزئية من مسائل

الفقه !! وقد تكفل الشافعى بنصرة مالك فى العراق فاتجه اليه أحمد وراه أولى الناس بمذاكرته وتوجيهه قال أحمد : ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة الا وللشافعى منة عليه ، فقل له .. كيف ذلك : قال ان أصحاب الرأى كانوا يهزؤون بأصحاب الحديث حتى علمهم الشافعى وأقام الحجة عليهم وقال هو أعلم الناس فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه (الرازى ٣٥) وأحمد لا يقول عن غير اعتقاد مؤمن ، فهو يرى المجاملة معية فى العلم ويرى شهادة الحق فى الفقيه أمانة ترد ، وحقا يعلن ويذاع ، وهكذا ... انعمت أواصر المحبة بين الرجلين انعمت اذ لم يفصله الموت اذ ظل ابن حنبل يترحم على الشافعى ويذكر أيامه المثمرة كما يذكر الأحلام الوضيئة ذهبت ولن تعود !!!

على أن الاستاذ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ذكر فى كتابه عن الشافعى ص ٥٧ ان ابن حنبل كان من كبار أهل الرأى قبل قدوم الشافعى الى بغداد ثم ترك مذهبه واتجه الى الحديث متأثرا بالشافعى ! ونعتقد أن هذا سبق قلم فقط ، فأحمد بطبيعته لم يكن من كبار أهل الرأى ، ولكنه درس المذهب القياسى فى مجالس أبى يوسف فلم يسترح اليه اذ لا يلائم تكوينه ذهنى ومشربه النفسى ، فحين قدم الشافعى وظاهر أصحاب الحديث انجذب اليه أحمد عن هوى صاف واعتقاد أكيد .

ويمكننا أن نقول فى ايجاز ان أهل الرأى يعميرون أصحاب الحديث بالاكثار من الروايات دون تفهم صائب ، أو تأمل فاحص مع عجز عن النظر وكراهية متعصبة للجدل ، أما أصحاب الحديث فيعيرون أهل الرأى بالأخذ بالظن ، والتوسع فى الرأى وتقديم القياس على خبر الواحد ورفض الأحاديث المرسلة والمجهولة !! وحين جاء الشافعى سلك مسلك الجدل فى الدفاع عن الحديث فانتصر لقوم ضعفاء !!

لقد تجلى أحمد - فيما تقدم - محافظا كل المحافظة متشددا كل

التشدد ، ولابد من كلمة تقال تطبيقاً على مسلكه دون تحيز الى
 اتقاص !! فنحن نرى أن كل عصر من العصور لا يخلو من متحررين
 يحاولون الوثب السريع في مضمار التجديد !! ومن محافظين يلتفتون
 الى الوراء قليلاً ويحاولون أن يكبحوا جماح الواهب المتسرع ووجود
 أولئك وهؤلاء ضرورة لازمة فإذا أفرط المتحررون في توبهم الطائر
 وجدوا من ينادى بالتؤدة والاطمئنان وإذا لزم المحافظون مكانهم
 القديم رأوا من يأخذ بيدهم الى الأمام .. وهكذا كان وجود أحمد
 وشيعته ضرورة ملحة لا تقل في لزومها عن وجود مدرسة أبي حنيفة .
 وكان وجود الشافعي بين أولئك وهؤلاء عدلاً منصفاً ، أقام الميزان
 ومنع الميل والجموح

ولقد ساعد على ارتباط الشافعي بأحمد هذا الارتباط الأخوي
 الحبيب ما رآه كل من الرجلين في صاحبه فأحمد بحر من الحديث
 لا ينضب ، صبر وثابر حتى جمع من آثار رسول الله ، ما لم يتهيأ
 لغيره الا في النادر القليل ، والشافعي محتاج لمن يروي له الحديث
 في فتوى عارضة أو حكم طارئ ومن له في بغداد غير أحمد ؟ وأحمد
 كان يروي الحديث ثم يأخذ منه الحكم الفقهي دون أن يتعدى ذلك
 الى استنباط ، فلما اتصل بالشافعي عرف منه ما يجهل ، ووقف بأرائه
 أمام عالم جديد قد انكشفت حجه عن آفاق فسيحة مديدة فتعلم من
 واضع أصول الفقه ضوابط الفهم الصحيح للكتاب والمقابلة بين
 الأصول واشتقاق الفروع ومعرفة الناسخ والمنسوخ والخاص والعام،
 والمطلق والمقيد ، وبذلك صار أحمد المحدث فقيهاً له مذهبه ، واماماً
 صاحب منهج واتجاه !!! ففضل الشافعي على أحمد فضل الأستاذ
 على التلميذ ..

لقد كان الشافعي مصباحاً يضيء ! وقد أثار للرجل الطريق .. ونحن
 لانقصر أحمد على الشافعي وحده ؛ فذلك لا يمكن أن يكون ؛ ولكننا نعدّه
 أكبر الأساتذة تأثيراً فيه ؛ وأعمقهم تغلغلاً في نفسه وعقله .. ونعترف لغيره
 من الشيوخ بفضل التربية والتلقين فقد روى عن كبار رجال الأحاديث في

عصره ؛ وكلهم ورع تقى يخشى مقام ربه كما تحدث فى مجلته عن فضل ابن المبارك هيثم وسفيان ومالك ممن شاهد ومن لم يشاهد فهو لا . جميعا قدموا الزاد الهنىء للعقل الغض فأشرق بذكائه ، وتألقت بمعرفته ، ولستنا نجد فى تاريخ العلماء تلميذا عكف على فرد واحد واقتصر على الأخذ منه بل أن الذين يؤثرون ملازمة أستاذ معين لا يتعدون عنه فى ظاهر الأمر الى غيره يخطئون ابضاح نفوسهم فهم يجهلون أنهم يتأثرون بما يصل اليهم ولو لم يتعمدوا الاستفادة والتحصيل فالعلم ماء تشربه النفس كما تشرب الأرض ما يقع عليها من غيث ؛ شعرت به أم لم تشعر فهو يؤدى دوره وينهض بواجبه أكمل نهوض ..

ولو تركنا الناحية العلمية جانبا ونظرنا الى ناحية السلوك الخلقي فانتنا نجزم جزئيا أكيدا بتأثير أحمد رضى الله عنه بسلوك الأئمة من الفقهاء فى اثبات على الحق ومجابهة الباطل الصريح .

فالرجل فى محتته القاسية كان ينظر الى سلف صالح صدقوا ما عاهدوا الله عليه فرضى عنهم ورضوا عنه .. وانك لتجد فى تاريخ علماء الاسلام غرائب وعجائب فى مجابهة الطغيان والثقة بالله والاستهانة بالعذاب وتكاد تعدها من الأساطير البعيدة لولا أن الرواة يتناقلونها فى تواتر متصل لا تحيق به النشكوك .. وكل ذلك تواتر متصلا الى أحمد ووقف طويلا عنده ؛ فتحمل محتته راضيا صابرا ، وكان بشاته الرائع حلقة ثمينة فى سلسلة ذهبية من قادة الرأى وأبطال النضال ..

لقد أتاه حديث سعيد بن جبير فقيه الكوفة وسيد التابعين .. حين جابه طغيان الحجاج فى جبروته فيقول له الطاغية أنت شقى بن كسير لا سعيد بن جبير ، فيرد عليه .. أبى كان أعلم باسمى منك ، واذا ذاك يتضايق الحجاج فيصيح فى تبرم وغيظ لقد شقيت وشقى أبوك ويظن أنه بذلك قد قطع الرد عليه ولكنه يسمعه يعجب .. الغيب انما يعلمه غيرك فيستشرى غيظه ويصيح لا بد لك بالدنيا نارا تلظى ، فيقول سعيد فى هدوء .. لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت الها غيرك ، ثم يسير الى مصرعه مستشهدا فى سبيل الله ..

لقد أتاه حديث سعيد بن المسيب فقيه المدينة حين يأتيه عامل عبد الملك .

فيأمره بالبيعة للوليد فيمتنع .. فيهدده بضرب عنقه فما يتراجع ، ثم يضربه خمسين سوطا ويطوف به مع الرعاع في أسواق المدينة وهم يقولون .. هذا موقف الخزى ، فيرد عليهم في يقين جازم .. بل من الخزى فرارنا يوم القيامة بما فعلتموه وفعلناه ..

لقد أناه حديث أبي خنيفة حين ضربه ابن هيرة عامل الأمويين بالسوط لتولى قضاء العراق ، فأبى أن يكون كرة في أيدي الطغاة ثم أراد المنصور كذلك فامتنع وضرب وجلس ومات في الحبس واثقا من رضوان الله وعدالة السماء ..

لقد أناه حديث مالك بن أنس حين جابه أبا جعفر المنصور وأفتى بأن طلاق المكره لا يقع ، وكان الخليفة يريد البيعة لابنه فجمع الناس وأجبرهم على الحلف بالطلاق وأفتاهم مالك صريحا بعدم الوقوع فضرب بالسياط وما تراجع في قليل أو كثير .. يا لله ! سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وأبو خنيفة ومالك وغيرهم من أئمة الفقهاء يقفون من الطغيان مواقف جريئة تصل في بعضها الا الاستشهاد وفي بعضها الآخر الى السياط والحبس والارهاق .. ثم يحجم ابن حنبل عن واجب السلف في ازهاق الباطل واحقاق الحق ، وليس بأقلهم ايمانا ، ولا بأضعفهم حديثا ورواية ! ان دماءه لتدعوه الى التضحية والبسالة ، وان القدوة الصالحة من العلماء والهداة لترسم له طريق الفلاح . وقد سار فيه الى أقصاه ولاقى من الارهاق والعنت ما سخره بعد حين فما ضعف أو استكان .. أجل .. لقد أثر هؤلاء - قولا وعملا - في أحمد فكانوا مصابيح تتألق في حياته ومثلا تنهض أمام من يريد العزة غير وجل أو هباب ، وقد أحسن الأمام الاقتداء والأسوة .. فكان - هو الآخر - قدوة صالحة ومثلا لا يطمح اليه غير الأفاضل ..

أمواج

أسائل نفسي لو عاش أحمد في عصر بنى أمية دون عصر بنى العباس
فماذا يكون مجرى حياته ، وهو انسان لا يتدخل في سياسة ولا يرى نصرة
حزب على حزب بل يتفرغ خالصا للفقہ يدرسه ، وللحديث يرويہ . . لو عاش
في عصر بنى أمية أو في صدر الاسلام لمضت حياته هادئة وادعة كالغدير
الساكن تحت الحميلة الناعسة يمضي الى غايته متسللا صافيا دون أن يشور به
أعصار أو تضطرب به نوازع ثائرة . . يفد اليه الناس في هدوء وغبطة
فيرتوون من نميره وينعمون بمراءه . . ولكن الرجل وأسفاه . . تخلف
به الزمن حتى عاش في عهد نائر مضطرم ففي كل حلقة مذهب ، وفي كل
مجلس رأى ، وفي كل طريق جدل . . وأحمد بطبيعته عزوف عن كل
ما يمت الى اللجاجة والملاحاة ، منصرف عن المناظرة بما تتطلب من منطق
وفلسفة وقياس ، ونظر فاذا الاعصار يكتسحه من كل مكان واذا هو مجبر
على أن يسأل فيجيب ، وأن يهتف بما يعتقد دون مواربة وتلميح . . حتى
وقعت الواقعة وسبق الى العذاب . .

بذلك ندرك أثر المجتمع في الفرد . . فلو نجا انسان ما من شواغل
بيته واحداث مجتمعه ، لنجا أحمد بن حنبل دون مراء ، فالرجل انطوائى
مسالم عزوف ، ولكن مجتمعه يدعوه الى أن يخوض أمواجه المتلاطمة ثم يغمره
العباب عن شمال ويمين فيظل يصارع اللجج المزبدة يصفعه التيار تارة وتضربه
الرياح تارات ، حتى كان ما لا يد أن يكون . . وكما أثر المجتمع في أحمد
أثر أحمد في المجتمع فتمصبت له الجموع ، واتبع قوله العامة وكثير من
الخاصة ، وأصبح رائدا يقول فيسمع ، ويمضي فيتبع وبذلك أثر الفرد في
المجتمع تأثيرا قويا ثائرا وانى لا أعجب كيف يكون للرجل الواحد هذا
التأثير الجبار وذلك الطول البعيد . .

كان العصر العباسي منذ ابتداء مجالا للثورة والدجاجة .. بل انى لأعلم
 -عصرا اختلطت به اثورة السياسية بالثورة الدينية اختلاطامشابكا معقدا كالعصر
 العباسي، فاذا تار تار من الموارق على الحكومة لم يعلن غضبه للحاكم والدولة
 فقط ، ولكنه يخرج بمبادئ جديدة تناهض الاسلام وتحارب الدين ،
 ويكون له أنصار ينشرون تعاليمه ويثبون أراءه ، فتصطدم بنصوص القرآن
 ومقررات الحديث وكما تنهض الدولة بجيوشها وأسلحتها الى منازل هذا
 الثائر فى ميدان القتال فهوى السيوف ، كذلك تنهض الدولة بعلمائها
 وفقهاها فيصول رأى على رأى وينهض لسان الى لسان .. ويعمد المسلمون
 الى آراء الزنادقة ومركة الملاحدة فيكشفون بهرجها الزائف ويطمسون
 باطلها الفاضح واذا ذاك تطمئن عقول تتردد ، وتهادى قلوب ترجف ..

نقد تار المقنع الحرساني ثورته المنكرة فى عهد المهدي ، فابتدع آراء سخيفة
 فى الدين والكون ونادى بالتناسخ مناداة فاضحة ليقول ان روح الله قد حلت
 فى آدم ثم انتقلت الى نوح ثم الى أبى مسلم ثم الى المقنع نفسه ، واذن فهو رب
 بعد .. ويوماً له بالركوع والسجود وأباح للعامة مايزجرهم عنه الاسلام
 من منكرات وموبقات فاجذبت اليه قلوب فارغة تتركس فى بهيميتها بكنز
 .. وشاعت آراء الزنديق شيوعا مضى بها الى الشرق والغرب فى مدى
 قريب وكثر أنصاره ومريدوه ، وبعثت اليه الدولة بجيوشها المتلاحمة ، فراءت
 منه خصما عنيدا ، وعدوا ممتعا يعز مناله .. حتى انتصرت عليه بعد جهسه
 جاهد وكفاح مرير ، وكان لا بد من أن يقوم علماء الاسلام بحملة مماثلة تبذل
 زيف القول وتهدى الى صراط مستقيم ..

كذلك غلبت دولة الاسلام فاضطر كثير من أرباب الديانات المعاصرة الى اعتناقه
 والانضواء تحت رايته . ومنهم من أسلم عن هوى صادق وايمان أكيد فكان
 قوة جديدة تضاف الى هذا الدين العظيم ، ومنهم من أظهر الاسلام وأضر
 الكفر فاندفع بعد اسلامه الظاهر الى ترديد أقوال المجوسية ، ونشر الفلسفة
 الوثنية ، كيدا مستترا للشريعة ، وضغنا محرقا على الاسلام والمسلمين ..
 وسارت هذه الأقوال كل مسار فتأقلمها غاد عن روائح وأذاعها مسلم غافل عن
 ملحد زنديق فنشرت ضبابا كثيفا وأقامت حجبا سوداء على العيون والقلوب ؛

وكان لابد لفريق من علماء الاسلام أن يقذفوا بالحق على انبساط لتكون كلمة الله هي العليا ..

أما المترجمات اليونانية عن الوثنية الأغريقية فقد هدر موجهها فأصبحت تندفق في كل عقل ، وتجري على كل لسان ، وقد انبهر الناس بمنطق ارسططاليس فلزموا قضاياء وأقيسته ، واتبعوا براهينه وعلله ، واستعان به قوم مفرضون على النيل من مبادئ الاسلام ومثله .. ورآه معشر آخر وسيلة للنباهة والجاه فجعلوه قمة عالية ومثلا مرموقا ، ولكنهم عارضوا به ماضات عقولهم عن فهمه من آراء الدين : في الله ، والغيب والقدر والجبر والاختيار فكان معولا آخر يهدم في صرح الايمان .. لسنا نعني بذلك أن قضاياء المنطق في اضطرابها الحتمى تخالف دينا بنيت قواعده الصحيحة على الحجة والعقل ، فهذا مالا يقره الواقع انصريح ؛ ولكننا نشير الى أناس يلبسون الحق بالباطل فيصطنعون المنطق اصطناعا خادعا .. اذ يرتبون نتيجة زائفة على قضية مربية ثم يصيحوون هذا هو المنطق تأين المجادلون ؟

كل ذلك كان سببا في الجدل الدينى ودافعا لعلماء الاسلام أن يذودوا عن شريعتهم العزيزة وقد أرهفت لها السيوف واتجهت اليها الضغائن ؛ فنهضت طوائف دينية كثيرة لمحاربة الباطل ووقفت أمام الفلسفة بقواعد الفلسفة وهاجمت المنطق بأساليب المنطق وأظهر هذه الطوائف وضوحا وأعماقها أثرا وتوجيها طائفة المعتزلة بلا نزاع ..

أما فريق السنة فقد كان يكافح ويجاهد ؛ ولكن على طريقته ومذهبه ، اذ أن أكثر هؤلاء - على عهد أحمد - كانوا يميلون الى الأدلة الثقلية وحدها فهم يؤمنون بالكتاب والسنة ؛ فاذا اعترض معترض على رأى ؛ ذكروا له قول الله في ذلك ، وظاهروا الكتاب بالسنة ، فذكروا قول الرسول ثم وقفوا عند ذلك لا يريمون ، والمعارض اللجوج ملحد زنديق لا يؤمن بسنة أو كتاب ، لهذا كان سلاح هذا الفريق واهنا في اعتقاده ، أما سلاح المعتزلة فقد كان ماضيا صارما يردى ويميت وقد تأثر أهل السنة فيما بعد بطريقة المعتزلة في الكلام ولجأوا الى البراهين حتى أصبحوا أهل حجاج وتناظر ؛ وأمامك المدرسة الأشعرية فقد استقامت طريقتهما في البحث على هدى من المنطق

والبرهان كما استقامت المغتزلة ، الا أن السبق المقيدور في ذلك
لأرباب الاعتزال دون نزاع ..

نظر أحمد حوله فماذا وجد .. وجد بونا شاسعا بين مذهبه في الهداية
ومذهب سواء .. فهو يعتمد في أدلته على الخالق ، وكل ما يتصل بالغيب على
النظرة الهادية والعاطفة المخلصة ويسلك مسلك القرآن في ضرب الأمثلة
المحسوسة فاذا احتاج الى أن يقنع انسانا بوجود ربه ذكر قوله (فلينظر الانسان
الى طعامه انا صبينا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا
وقطبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا) واذا سأله رجل عن قصة
وجوده وكيفية نشأته ، ذكر له قول الله (فلينظر الانسان مم خلق خلق من
ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر) واذا احتاج
الى أن يقوى عاطفة السائل بحث عن أمثال هذه الآيات ، فذكر قول الله
(أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الأرض
كيف سطحت فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) ..

فاذا اضطر الى مسائل علم الكلام سلك مسلك انقرآن فشرح قول الله
«لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا » أو قوله « ما اتخذ الله من ولد وما كان
معه من اله اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » ..

هذه وأمثالها أدلة أحمد وهي لا تحيي العاطفة وحدها ، ولكنها تلجئ
العقل الى التفكير ، وتدعو التأمل الفاحص أن يقطع أشواطا بعيدة في ميدان
الثبوت وقد ألف بعض الناس أن يقول عنها انها أدلة عقلية ثم يسكت موهما
قارئه أنها لاتساير العقل .. وهذا بهتان أى بهتان ، فالحجة العقلية ناهضة
فيما سطر من آيات الكتاب .. ولولا صحتها الأكيدة في ميزان النظر
السليم ما جاءت في كتاب الله غير أن هناك فرقا واضحا بينها وبين براهين
المنطق وأدلة الاعتزال ، فالقرآن لا يسطر حجته في مقدمة صفري ومقدمة
كبرى ونتيجة ، ولا يهتم بالأشكال والأقيسة ، ولا يحفل بألفاظ انفلاسفة من
عرض وجوهر وكم .. وكيف ومتى .. وأين .. بل يسير مع المنطق البديهي
المسلم به لدى التأمل الحصيف ولم لا يكون كذلك ولم يجعله الله مقصورا على
الفلاسفة والمنطقيين بل ان هدايته الساطعة تشرق في قلب الأمي الساذج

كما تسطع في عقل المتفلسف النصف .. وحسبه أن يسلك مسلكا وسطا
يكون فيه تبصرة لمن كان له قلب أو القى السمع ..

عشق أحمد نصوص القرآن واقتنع بأدلته الواضحة في ميدان الجدل
وظن أن السلامة كل السلامة فيما يتمسك به من نصوص .. ولكنه يفاجأ
بأقوال كثيرة يزدحم بها عصره وآراء متضاربة يتناقلها علماء الكلام من ناحية،
وارباب الفلسفة من ناحية ويتفرس في مسائل النزاع وموجبات الخلاف فيرى
عقله في بحر لجى يشاء موج من فوقه سحب .. فهؤلاء رجال المعتزلة
ينقسمون فيما بينهم إلى أكثر من ثلاث عشرة فرقة، ولكل فرقة خلافها الطويل
ونقاشها المشتجر، وهؤلاء هم الحوارج يتشعبون إلى أكثر من عشرين فرقة،
وكل طائفة تكفر من عداها من أصحاب المذاهب في الإسلام وهؤلاء هم
المرجئة ولهم أحزابهم وشيعتهم أيضا ، وهؤلاء هم الشيعة ، وهم في
كثرتهم واقتراحهم وتطاحنهم بحيث لا يرجى لديهم وفاق .. وجميع أولئك
مسلمون يؤلفون الحجج ويأخذون من الكتاب والسنة ما يوافق طريقهم
الخاص حتى أصبحت آيات القرآن ، لدى من يستشهد بها من أولئك
وهؤلاء مثار التأويل والتعليل والتناقض الموهوم ، وأحمد يرى ذلك
ويسمع في غيظ فيعلم أن الجدل أساس كل شر وأن اللجاجة في علم
الكلام قد أفسدت أكثر مما أصلحت .. لذلك يحذر من هؤلاء ويدعو إلى
التمسك بمذهب السلف الصالح ، والسير على هدى الصحابة والتابعين
ومجانبة الفلسفة والمنطق النظري .. ويرى ذلك مذهب أهل الحق ومن
تبعمهم باحسان ..

لذلك نشاهد للرجل أقوالا كثيرة في ذم الجدل والمجادلين ، قال
الحلال .. عن عبدوس بن مالك العطار .. سمعت أحمد بن حنبل يقول
أصول السنة عندنا ، التمسك بما كان عليه الصحابة وترك البدع وترك
الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهوال وترك المراء والجدل ، وليس في
السنة قياس ولا يضرب لها الأمثال ، ولا تدرك بالعقول ..

وقال ابن حنبل .. سمعت أبا عبد الله يقول (١) من أحب الكلام لم

(١) ترجمة الذهبي ص ٣٠ بتحقيق الاستاذ شاكر

يفلح ولن يثول أمره الى خير ، عليكم بالسنة والحديث واياكم والخوض
والجدل والمراء ، لقد أدركنا الناس وما يعرفون هذا ..

ويقول .. نست أتكلم الا بما كان من كتاب أو سنة أو عن الصحابة والتابعين
أما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود ..

هذه الأقوال وعشرات من أمثالها تروى عن أحمد .. وتصور شعوره
النفسي ازاء الجدل العقلي وضيقه المتبرم بالنقاش الكلامي .. ولكنه يعيش
بين التياران الملتهبة ، فلا بد أن يحرقه ضرامها المتأجج ولن يستطيع الفرار
وهو امام من أئمة الدين وعن يمينه وشماله نقاش فى العقائد .. وحديث
عن ذات الله وصفاته ، وتلاميذه يأخذون عليه كل سبيل فيعيدون ويبدون
فيما ازدحمت به المجالس من مجادلات .. حتى فى الطرق والخوانيت وعلى
أبواب الدروب فالى أين النجاة .. ؟!

هذا سائل يسأل ما الايمان ؟ أهو معرفة أو عمل ؟ أهو يزيد أو
ينقص ؟ ثم يذكر آراء الأئمة وردود المعتزلة ، ويقذف بالآيات فتقع فى
موضعها تارة وتجاوبه تارات فماذا يصنع أحمد اذ ذاك ؟ ..

وهذا سائل يسأل عن مرتكب الكبيرة .. أكافر أم مسلم أم منافق
أم هو فى منزلة بين المنزلتين ؟ وهل سيخلد فى النار أو لا تضر مع الايمان
معصية ؟ أقبواصل أحمد صمته وهو امام ؟

وهذا سائل يسأل عن أفعال العباد ويتكلم عن الجبر والاختيار ويخوض
فى القدر والقضاء ، ثم يقطع صدرا من آية ، ويجتزئ بعبارة من حديث
وكل ذلك يترامى الى أحمد .. فما اتجاهه وما منحا ؟

وهذا متفلسف يتحدث عن امكان رؤية الله أممكنة بدليل قول الله ..
«وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة» أم ممتنعة بدليل قول الله « لا تدركه
الابصار وهو يدرك الأبصار » ثم يأتى الى أحمد فهل يصتصم بالسكون
والاطراق ؟ ..

وهذا عنيد الجوج يبحث عن صفات الله فيسأل : هل ينفى صفات المعانى
كالتقدرة لأنها تكون قديمة فيتمدد القدماء أم يثبت هذه الصفات ؟ ثم اذا

ثبتت أفككون الأفعال التى بالقدره مخلوقه فالقرآن مخلوق أو تكون غير مخلوقه فالقرآن غير مخلوق .. لأنه قائم بذات الله ؟ فماذا يكون جواب أحمد اذ ذاك ؟ ..

أستله عويصة حائرة تصدم تفكير الامام وهو قادر على الاجابة عنها من وجهة نظره ، التى تنقيد بظواهر النصوص ولكنه يرى علماء الكلام يسلكون مسلك المنطق لا النص فيسلسلون حلقات متصلة تمضى بالقارىء الى حيث لا يتأكد إيمان فى رأيه وكم قال فى نفسه : أهذا يتفق وما كان عليه الصحابة والتابعون ؟ ثم ينظر فيما حفظ وعلم فلا يجد السلف قد خاض فيما يمعن فيه الخاضعون اليوم من جدل وشكوك ، فتزداد كراهيته للمناظرة والجدال ، ويمنع لسانه أن يشير غبارا يقذى العيون والعقول ولا يجلى القلوب .. غير أن الدولة لانوافقه على سكوته وامتناعه ، فتوجه اليه من يسأله ثم يحمله الخليفة الى مجلسه فيناظره أساطين الكلام بما لا يأنف من البراهين والحجاج .. وتكون المحنة القاسية ، حين يعتصم الامام بظاهر النص فيصب عليه العذاب صبا وتأخذه الشياطين من كل مكان فيكابد حربا لم يكن من جنتها ، ولكنه يصلى عذابها الأليم ..

ولنا أن نتساءل : أكان فى مصلحة العقيدة الاسلامية أن يحتدم الجدل الفكري بين علماء الكلام أم أن طريقة السلف وحدها كانت كافية فى العصر العباسى لانقاع العقول وانهارة القلوب ، كما كانت كافية لذلك فيما تقدم من العصر الأموى وصدر الاسلام ؟ ذلك السؤال هام يجب عليه الاستاذ أحمد أمين فيقول فى الجزء الثالث من ضحى الاسلام ص ٢٠٥ .. " لقد أدى المعتزلة للإسلام خدمة لاتقدر فقد جاءت الدولة العباسية تحمى الفرس لأنها قامت على أكتافهم وطارت من على عاتقهم ولكن من مذاهب الفرس ثوبه وتشبيه ، ونحو ذلك ، وفى اعطاء الحرية للفرس خطر فى دخول هذه المذاهب وتسربها الى المسلمين ، وقد قرب العباسيون اليهود والنصارى واستخدموهم فى الطب وغير الطب وكلفوهم الترجمة الى العربية وذلك ما مكن طائفة منهم أن يتسللوا بأديانهم القديمة ، يريدون نشرها ولذلك نجد فى هذا العصر دعاة كثيرين يدعون الى ثوبية الفرس وماتوبية الفرس

وبعض تاليم اليهودية والنصرانية واليهود ، وبعض هؤلاء تسننوا بالاسلام وبعضهم دعا دعوته فى علانية ، وأبىح الجدل والمناظرة فى أدق المسائل وأعمقها ولم يكن المحدثون والفقهاء يستطيعون أن يقفوا أمامهم لأن المحدثين وأمثالهم بمهرة فى النصوص ، والذي ينكر الاسلام لا يقنع بمجرد ذكر آية أو رواية حديث ، إنما يريدون دلائل عقلية على وجود الله ، ونبوة محمد وصحة القرآن ، كما يريدون دلائل عقلية على بطلان مذاهبهم ؛ وكان هؤلاء جميعا من ثنوية ويهود ونصارى ، قد تسلسلوا بالفلسفة اليونانية : واستخدموا منطقها فكونوا منه براهين على مذاهبهم فكان لا بد لمن يقنعهم ويرد عليهم أن يتسلح بسلاحهم وأن يكون على معرفة تامة بأسرارهم ومذاهبهم ، فيقرع حجة عقلية بحجة عقلية ويحمى المسلمين من هجومهم ويث دعواتهم ، فلم يبق بهذه المهمة ويحمل هذا العبء فى هذا العصر إلا المعتزلة فقد نازلوا الوثنية والدهرية وجعلوا قوما منهم يدخلون الاسلام وألفوا الكتب الكثيرة فى الرد عليهم ونازلوا اليهود والنصارى وردوا عليهم . . .

الى أن يقول الأستاذ أحمد أمين ص ٢٠٦ : « لا يعلم الا الله ماذا يكون من الشر على المسلمين لو لم يقف المعتزلة هذا الموقف وقت الهجوم على الاسلام بهذه القوة التى هجموا بها بل ان الأسلحة التى تسلح بها المسلمون بعد علماء الكلام على النمط الذى وضعه الأشعرى وحلله ، هى من غير شك وليدة الاعتزال ، وترتيب لآراء المعتزلة وما كانت تكون لولاهم . . . »

واذا كان للمعتزلة هذا الفضل كله فى رأى الأستاذ أحمد أمين وسواء من مؤرخى الحياة العقلية فى الاسلام فلماذا وقف منهم الامام أحمد موقف الكراهية والعناد ؟ وكيف حاربهم كما بدأوا فى حربه أيضا حربا جنوا منها الوبال ؟ . . .

يخيل الى أن أئمة المعتزلة لم يتضح للرأى العام فى عصر أحمد كما اتضح الآن للباحثين فان مرور الزمن قد ساعد على تحلية الحقائق وإيضاح الحق ونفى الشبهات ، وقد يعاصر الانسان أناسا فيرى ويشاهد من أعمالهم ما يزنه بميزان خاص ، ثم تنصرم الأيام فاذا رأيه المدون لا يتفق والواقع.

فى شىء مع أنه كان صادق القول مخلص النظرة فيما دون وسطر .. اذ أن المعاصرة تحول دون اكتشاف جميع وجهات النظر المتقابلة ، وأعتقد اعتقادا جازما أن الإمام أحمد لو ألم عن يقين واعتقاد بما قام به المعتزلة فى عصره من دفاع وجهاد عن أقدس الآراء الاسلامية لغير موقفه ولكن ظروف مجتمعه من ناحية وطبيعة دراسته من ناحية أخرى أقامت حائلا بينه وبين خصومه فلم يهتد معهم الى صواب .. ويجب أن نضيف الى ما تقدم سببا آخر فبعض رجال المعتزلة كانوا يسرون بالقول ويسئون بالعمل فقد تجد منهم اللسن الفصيح والمناضل البارع تسمعه فسمع الحجة الواضحة وتلمس نفاذ العقل وصدق العارضة وسلامة الدفاع ولكنك تنظر الى سيرته فتجده لا يمثل فرائض الاسلام ولا يصاحب البررة الأخيار ممن يخشون مقام ربهم ويرجون لله وقارا وقد تراء صديقا لبعض الملاحدة من مركة الزنادقة والامام يحكم على السلوك قبل القول ويزن العمل ميزانا دقيقا فيقدمه على البراعة فى المنطق ، والجهارة فى البيان .. مما نأى به كثيرا عن هؤلاء .

وسبب ثالث ، هو أن بعض رجال الاعتزال قد تخاصموا فيما بينهم تخاصما مريرا ورصد كل فريق لصاحبه أخطائه ومزائقه ، فوقع بأسهم بينهم وبدت مئالبهم على ضآلتها مكبرة مجوفة ؟ والعامة ممن لا يفهمون طرائقهم فى الجدل والتقاش يضيقون بهم اذ أن الناس أعداء ما يجهلون فاعتصموا ظهور هذه المسالب وساعدوا على اذاعتها بمساعدة تزيدها المبالغة ويحوطها التهويل فنقل عن القوم كثير مما اختلق من الافك واكثرهم نقي برىء وقد وصل للامام عن طريق هؤلاء العامة ما أبرمه وأغضبه .. فخاصم وقاطع ، لأنه رضى الله عنه صريح واضح لا يميل الى المواربة والاعضاء .

تلك أسباب ثلاثة نراها سبب الجفوة بين الامام وخصومه من أهل الاعتزال ... الا أن السبب الرئيسى يتلخص فى اختلاف المنهج وابتعاد الثقافة فالامام يسأل نفسه دائما .. أكان هذا الجدل على عهد رسول الله وصحابته الأخيار ؟ واذا لم يكن ذلك فلا تسامح ولا اتفاق ..

قال الخلال ما ملخصه (١) « كان العباس الهمداني من أهل السنة وكان يجادل أهل الكلام فقال له أحمد اتق الله ؟ ولا ينبغي أن تنصب نفسك وتشهر بالكلام وبوضع الكتب ولو كان هذا خيرا لتقدما فيه الصحابة ولم أر شيئا من هذه الكتب وهي كلها بدعة ... فقال العباس ولكني اسمعهم يتكلمون وليس أحد يرد عليهم فاعتم ولا أصبر حتى أرد عليهم مع أنني لست أطلبهم ولا أدق أبوابهم فقال له أحمد .. ان جاءك مسترشد فأرشد .. فأحمد يمنع الرد على أهل الكلام منا لا يقبل المعارضة أو التسوية ويرى السكوت عنهم باب الخير والنجاة فهو لا يبيع في معرض الافادة غير استرشاد الراغب لانه طالب حق لا جدل أما غيره فلا لجأ ولا جدال ورجل هذا مذهبه وطريقه لن يلتقي مع المعتزلة - أيا كانوا - في الطريق ولوالتقي معهم في شيء .. لعد من غرائب الطباع ومتناقضات الأشياء واذن فلا نسأل بعد ذلك كيف اختلف ولكننا نقول ان الخلاف امر طبيعي بين سلوك وسلوك واتجاه واتجاه .. »

سلطان يتحكم

يقول الامام على كرم الله وجهه .. اذا أقبلت الدنيا على انسان كسته محاسن غيره ، واذا أدبرت عنه سلبتة محاسن نفسه وهذا قول صائب لا مزية فيه فكم أقبلت الدنيا على فرد من الأفراد فخلع عليه الناس محاسن الكمال ونسبوا اليه أرق الشماثل وأنبل الصفات ولم يتركوا محمداً من المحامد الا جعلوها بعض مناقبه ومزاياه وان كان في ميزان الواقع لا يمتاز عن غيره من الخلائق في علم أو خلق أو تصريف .. وكم أدبرت الدنيا عن ذي جاه ممنع أو سلطان قادر فاتجهت اليه الأسن بقوارصها اللاذعات وطفق الناس يبحثون عن المخازي المستورة والمثالب المنكرة ليحسموا بعثها الثقل على منكيه فيصبح وقد أنكره من عرفه وتبرأ منه من صافاه ..

لقد أقبلت الدنيا على المأمون العباسي بعد اندحار أخيه الأمن فسطر التاريخ للمتصّر كل مروءة تظن وتثأى به عن كل شبهة تلمس ، كما أغفل ما للمهزوم من مروءة وفضل . فانطلقت الروايات تتحدث عنه بكل نقيصة ومذمة . حتى لفته العربية المطبوعة جعلت مشار الهزء والتندر فلا يكاد ينطق بكلمة فصيحة بعيدة عن اللحن مع أن مؤدبيه في ظلال والده كانوا من أئمة البيان فمحال أن يترك الرشيد ولده عيباً ألكن ثم يرشحه للخلافة في بيت بني هاشم وقد أضعوا البلاغة في المهذ فشبوا ذوى أدب وافتان ولكنها الدنيا أدبرت عن الأمين فأصبح هدف التزديد والافتراء

لسنا بذلك نريد أن نجرد المأمون من كل فضل وعقل فالرجل عالم مطلع شغل بالفلسفة والمنطق وعقد مجالس البحث والمناظرة وجمع اليه أساطين القول وأرباب الجدل وناقض وعارض فتفتق ذهنه عن ألعية ومقدرة هذا ما نعترف به ونؤكد .. ولكننا نكتب عن المأمون كرجل سياسي يتبوء أسمى مراكز الدولة في الاسلام فهل قام في منصبه السياسي بما يثبت كفايته ومروته ، أو انه وقع في عدة أخطاء تفاسل عنها أكثر

المؤرخين !! ولو لزموا جانب الحق لذكروا الفضل والنقص والهبوط والارتفاع .

لقد قامت الثورات المختلفة فى عهد المأمون بسبب اندفاعه وتعجله فهو لم يبحث فى شئون الدولة بما يجب ان يتعمق فيه ولى الامر الحليف ولكنه ترك لوزير الفضل بن سهل كل شىء من أمور الحكم فجمع حوله الأقارب والأصهار وملأ الجو بالفتن والدسائس وأوغر صدر المأمون حتى على أخلص خلصائه وأبرع قواده ، فقد كان القائد المحنك هرثمة بن أعين يد المأمون الأولى وبسطوته الحازمة تم النصر له ببغداد ، وارتاح نهائيا من الأميين ثم قامت بعض الثورات على المأمون وعجز عن اطفائها قادة الكمأة من كبار القواد فلم يكن كفتا لها غير هرثمة فنهض للخطب الجلل وانتقل من ثورة الى ثورة ؟ حتى هدأت الأمور على يديه .. وكان جزاؤه بهذا الجهاد اللاغب أن يستدعيه المأمون مخفورا ولا يأذن له ببيان وجهة نظره وإيضاح مظلمته بل يهجم عليه الحراس فى حضرته فيوسعون ضربا وطعنا ثم يسحبونه الى السجن ليموت متأثرا بجراحه بعد قليل .. فأى تصرف هذا الذى يجرى جزاء سنمار فيشج رأسا كان حقه الأكليل !؟

ثم ما هذا الاغراق فى الجدل من خليفة مسئول ، لقد شغلت الحكومة عن المصالح العامة بأمور جدليه لا تهم الرعية فى شىء واحتاز الخليفة لحزب معين يستوزر رجاله ويناوى أعداءه مع أنه رئيس الجميع ، وعليه ألا ينصر فريقا على فريق مهما كان معتقده وهواه ، بل ان تسرعه العاطفى قد جعله يفضب أهل بيته ويبيع احد ابناءه على حتى اذا تيقن الخطر فى شططه مهد للمخلاص من ورطته وكر ناكسا عن جهته العلوية وناقض نفسه فلم يسلك جانب النصفة بل اضطهد كثيرا ممن ينتسبون الى على وتعقب البارزين منهم فى اليمن وخراسان حتى قاسوا على يديه البلاء !!! فأى تناقض جائر يقع فيه خليفة يمعن فى الجدل والتناظر أكبر امعان !؟

لقد كان المأمون ذا اخطاء كبيرة ومع أن مؤرخى المسلمين قد ذكروا متناقضاته وغرائبه الا أنهم فى الأكثر الأغلب أحاطوا ذلك بتبرير مشفق ودفاع قلق واهن !!! أما الفرنجة فقد نظروا اليه نظرة أكثر واقعية واعتدالا

فقالوا فيه ما يجب أن يقال بعيدا عن كل عطف وتبرير .. ونحن لا نصدق مؤرخي الغرب في كل ما يقولون ولكننا لمسنا كثيرا من الصواب لديهم في أمر المأمون ولديك بعض ما قاله السير وليم موير في كتاب الخلافة مترجما عن كتب الدولة العباسية (١)

« فمما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفا بالعدل والحلم وانما يؤخذ عليه أنه كان متقلبا في آرائه وشعوره سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية ويرجع السبب في ذلك الى نزعة الفارسية التي ورثها عن أمة واليثة التي ربي فيها من جهة والى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى ، على اننا مع اعترافنا بعدله ، لا نستطيع أن ننزعه عن الجنوح في بعض الأحيان الى الجور واستعمال القسوة من غير مسوغ فانه قد تصرف في بعض الحوادث تصرف الجبابة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ماسودوا به صحائفهم كثيرا ولو أغضينا عن التبهات التي حامت حول مقتل الفضل وموت على الرضا غدرا وغيلة فانا لا نستطيع ان ننفي عن معاملته الجائرة لابن عائشة وما لقيه هزيمة وظاهر مع تفانيهما في نصرته وتوطيد حكمه واضطهاده لكثير من أجلاء المفكرين وأصحاب الآراء المخالفين لرأيه في بعض مسائل الدين في مجلس المناظرة مما يدل على قسوته ، الا اننا اذا راعينا طول مدة حكمه وموقفه النبيل في عفوه عن الخارجين عليه في بغداد نرى كفة عدله وحلمه أرجح من كفة جوره وقسوته وقصارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الاجمال من أزهى عصور التاريخ الاسلامي .. »

هذه كلمة مؤرخ منصف لم يشأ أن يكون تاريخه تسييحا بحمد خليفته فهو يأخذ عليه بعض الأشياء كما لم يشأ ان يغفل ما رآه في أخلاقه من المحاسن والمزايا الطيبات فهو بانصافه العادل يعطى مثلا قويا لهؤلاء الذين يتحدثون عن المأمون وكأنه ملك كريم ... فهو يقول لهؤلاء انظروا الى الرجل من جميع نواحيه لتكونوا نقدة منصفين ...

فهل كان المأمون محقا كل الحق حين سخر الدولة برجالها ورؤسائها

لمحاسبة الذين لا يقولون بخلق القرآن ؟ !!! وهل كان المنطق يوحى بأن تكون المناظرات العلمية مجال افتاء بين الناس ، فإذا لم يجد موافقة تامة لما يعتقد عزل وشهر وعذب وآذى مئات ومئات ؟ !!!

ان كثيرا ممن يؤرخون هذه المحنة القاسية يحاولون تبرئة المأمون فلا يستطيعون فهم في دفاعهم المتخاذل يزعمون أن الخليفة الباقعة الألمي قد وقع تحت تأثير قاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى !!! ولولا وجود أحمد ما تحمس المأمون لقضية القرآن هذا التحمس البالغ ونحن نقول لهؤلاء أهذا دفاع .. أم ملام ؟ .. فلو كنتم صادقين فيما تنسبونه لابن أبى دؤاد لكان المأمون فى يده ريشة خفيفة يهب بها فى كل اتجاه وتلك نقيصه شائنة لاتلصق بخليفة مثقف ضليع الا أن يكون مظنة الضعف والاستسلام

أجل كان ابن أبى دؤاد ذا منزلة كبيرة فى دولة المأمون ولكن ليس له - بالغا ما بلغ - من الخطورة والاقبال أن يسير الأمور كما يشاء دون معقب أو مشير الا ان يكون قد صدر فى فعله عن هوى صادق فى نفس الخليفة فتلاقت الرغبةان .. ووقعت المحنة النكراء ! * ثم من هو أحمد ابن أبى دؤاد *

ان الذين يؤرخون له .. فى أكثرهم .. يحققون ما سلف من قول الامام على .. «واذا أدبرت الدنيا عن شخص سلبته محاسن نفسه ؟ فقد نكب الرجل نكبة سوداء فى خاتمة حياته » ووقف منه المتوكل موقفا عجلا بموته فى أعسر الأوقات .. فاندفع اعداؤه على كثرتهم الى تدوين مثالبه ، ثم تجويفها وتضخيمها والزيادة عليها بما لا يمكن أن يطاق حتى وصفوه وهو المدره اللسن - بالجهل وانفخلة والبله وبين ما ذكره المكثرون من أعدائه ، والمقلون من منصفيه نستطيع أن نعرف مكان الرجل وان نضعه موضعه الصحيح لم يكن الرجل عظيما فتيوا مكان الخطوة فى الدولة عن حب زائف أو نسب قريب !! ولكنه نشأ بين العامة وشابك فى البحث والدرس حتى بلغ بذكائه مبلغ التقدير والاحترام *

كان والده رقيق الحال ضائق اليد فحاول أن يصرف نجله عن القراءة للتكسب من عمل يدر عليه المال ولكنه مال الى العلم والبحث وصاحب كبار

رجال الاعتزال حتى عد من المتضلعين ذوى اللسن والافحام ؛ وجمعه حسن طالع به باحدى مناظرات المأمون فجلى عن رجاحة وعرفان حتى عرف الخليفة مقامه ووثب به الى الخطوة المرموقة دون انتظار ...

فرجل يجلس فى مجلس النلية من ذوى الافحام والجدال لابد أن يكون موفور الثقافة عظيم الذكاء وكل ما يقال عن بسلاته وجهله محض افتراء وبهتان والافما وسيلته الى التصدر العلمى وليس - قبل - بنى حسب أو جاء على أنه فوق توقده الذهنى كان سعيدا بحافظة جامعة مستوعبة مما ينهى أنه قطع مدى طويلا فى الرواية والاستيعاب ، قيل سأل المأمون جلساءه عن بايع ليلة انقبة من الانصار فلم يدر احد عدتهم غير أحمد بن أبى دؤاد فقد عددهم واحدا واحدا بأسمائهم وكناهم وأسايهم فقال المأمون اذا استجلس الخليفة فاضلا فمثل أحمد فقال ابن ابى دؤاد واذا جلس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذى يفهم عنه ويكون أعلم بما يقال .. ومن كان هذا مبلغه من الحفظ فى خبر يسير قد يكون هناك ما هو أهم منه وأولى من الأخبار فهو لغيره أحفظ ولن يكون اعجاب المأمون بأحمد عن غير طريق العلم والجدال ، حتى انه أوصى به خليفته المتصم فقال فى آخر كتاب له .. وأبو عبد الله أحمد بن ابى دؤاد لا يفارقك أشركه بالمشورة فى كل أمرك فانه موضع ذلك (١)

فأحمد العالم المعتزلى اللدود قد شارك فى مساندة المأمون وتعضيده ولكنه لم يكن صاحب السيطرة والأمر كما يحاول المبررون لصنيع المأمون أن يصفوه .. انما كان صاحب السيطرة والأمر فى ذلك بعد وفاة المأمون وفى عهد المتصم اذ ان الفرق بين الخليفين عقلا وثقافة يجيز للقاضى العنيد هذه السيطرة الطاغية وذاك التحكم العنيف .. ولدينا نص يثبت جنوح المأمون الى اظهار القول بخلق القرآن وجعله مذهبا عاما للدولة قبل اتصاله بأحمد بن ابى دؤاد فقد روى المقرئى ان يحيى بن أكرم قال ... قال لنا المأمون لولا مكان يزيد بن هرون لأظهرت القول بخلق القرآن فقال له بعض جلسائه .. ومن يزيد بن هرون حتى يهابه امير المؤمنين .

فقال انى اخاف ان اظهرته أن يرد على فيختلف الناس وتكون فتنة وانا اكره الفتنة فقل الرجل ... انا اخبر بذلك يزيد بن هرون فخرج الى واسط - فجاء الى يزيد فدخل عليه المسجد .

فقال يا أبا خالد ان امير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك انى اريد ان اظهر القول فى أن القرآن مخلوق فقال له يزيد : كذبت على امير المؤمنين ، فان كنت صادقا فاصبر الى ان يجتمع على الناس ؟ قال فلما كان الغد واجتمع عليه الناس ، أعاد رسول الخليفة ما قال له فى اليوم السابق وتساءل : ما عندك فى ذلك؟ قال كذبت على أمير المؤمنين ، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على ما لا يعرفون ، وما لم يقل به أحد ، ثم عادا الرجل فأخبر المأمون فقال : أعلمت ؟ لقد تلعب بك ، ومعروف أن يزيد بن هارون قد توفى ٢٠٦ هـ وأن أحمد بن أبى دؤاد قد ولى منصب قاضى القضاة بعد عزل يحيى بن أكرم سنة ٢١٨ هـ أى بعد اثنى عشر عاما .. أفكان المأمون اذ ذاك خاضعا لتأثير ابن أبى دؤاد ؟ أم انه تفكيره الخاص واتجاهه الصريح ، لشتان بين المعتصم والمأمون ؟ كان المأمون كما سلف القول كثير المعرفة جميل الرأى فى اللغة والأدب والجدل والكلام ، فنشأه فيما يأخذ من أسباب المناظرة شأن الفاحص الدارس الحبير ولكن المعتصم كان من أرباب السيف فقط . ولا يكاد يشارك مشاركة ما فى رأى أو تفكير ، !! فاذا تسلط عليه ابن أبى دؤاد بتوجيه المأمون وتوصيته فقد صادف من الخليفة مركبا ذلولاً ومقادة هينة ، وانك لتلمس جهل المعتصم من هذه القصة . (١) فقد ورد عليه كتاب من أحد العمال ، فقرأ عليه وزيره أحمد بن عماره . وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فقال المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال الوزير : لا أعلم فقال المعتصم : خليفة أمى ؟ ووزير عامى !! اسألوا من بالباب من الكتاب ، فخليفة لا يعرف معنى الكلأ لا يمكن أن يرجع فريقا على فريق أو يجلس مجلس المناظرة فى محنة خلق القرآن عن رغبة واقتراع بل يسند أمر ذلك الى من بيده الحصام واللجاج !! ولن يكون غير أحمد بن أبى دؤاد ، والحق ان المعتصم كان فى أطواء نفسه نفورا عن كل ما يمت

الى المحنة من تناظر فقتل فتعذيب ، ولكن أحمد من ورائه يقول له : هذا أمر المأمون !! سر في طريقك فاقتل من تشاء ! وفي رقبتي دماؤهم يوم الحساب وما زال بالمتعصم حتى سلم له الأمر فعمد الى الفتنة الثائرة ، والتنكيل بأناس لم يروا أن يخوضوا مع الخائضين ، وفي مقدمتهم امام أهل السنة وبطل المحنة أحمد بن حنبل كما سنلم بتفصيل ذلك بعد حين .

راح المتعصم وجاء النوائق بالله ؟ فوجد أحمد بن أبي دؤاد مهيمنا على شئون الدولة . متصدرا مجالس الامتحان فجرى الأمر على سننه الطبيعي من تعذيب وقتل وسجن وارهاق ، والخليفة الجديد كسابقه المتعصم ضيق الأفق قليل المعرفة ، فهو يظن المسألة مسألة دين وعقيدة ، واحتفاظ بكرامة الاسلام ، وقد ألف أن يرى في عهد سابقه فظائع التنكيل ، وفواجع التعذيب ، فلم ير في استمرار ذلك على يد أحمد شذوذا شنيعا تضطرب به الدولة ويتفرع له الناس ، ولكنه في أواخر عهده أصيب بقلق نفسي ، فكان يخلو الى نفسه متسائلا عن هذه الأفواج الملعونة التي تساق مقهورة الى التنكيل والارهاب ، دون جريرة واضحة يرتكن اليها متقم عبيد ، ثم يقابل ابن أبي دؤاد فيزيل عنه هواجس الشك بما يضرب من مثل أو يحتال من خداع ، اذ يذكر له جهاد المأمون وعزيمته ، ويحدثه عن شكيمة المتعصم وحزمه ؟ ويدعوه الى أن يقتدى بسلفيه الكبيرين !! وكثير من المؤرخين يذكرون أن النوائق في أواخر ايامه قد وقع في حيرة مربكة فلم يعنف في التنكيل ولم يطلق يد أحمد اطلاقا تاما ، بل تفاضى مرة ، وتشدد مرة ؟ مما يؤكد أنه صدم بالمحنة صداما لا محيص عنه ، ولا مجيد ثم حانت وفاته فاستراح من شكوكه وتردده وأسلم الأمر الى المتوكل وعلى يده ختمت المائة وانتهى الصراع ولنا أن نبحت عن الحافظ الملح الذي دفع المأمون وصاحبه الى هذا الاضطهاد الأليم ، انك لتقلب الأمر على وجوهه فلا تجد رأيا يقنع ، أو منفذا يصل بك الى وجه سديد ، فهل كان القول بخلق القرآن أحد أركان الاسلام التي يجب أن تداع صريحة مكشوفة

فلا تحوم حولها شائبة أو ينهض بازائها اشتباه؟! هل كانت العقيدة المحمدية على شفا جرف هار لا يكاد يمنعها من السقوط غير القول بخلق القرآن!! لم يكن القول بذلك أحد أركان الاسلام ، ولم تكن الشريعة مهددة بالسقوط ان أمسك القوم عن الخوض في هذا اللجاج ، واني لأطالع جميع ما قيل في تعليل ذلك وتبريره فلا أحس باطمئنان مريح ، حتى لأكاد أجزم أن القائمين على هذا الأمر قد استسلموا لخيال جامع قذف بهم في أحلك المآهات !!

ان بعض الذين يدافعون عن المأمون وشيعته يقولون ان القرآن كلام الله ، وان عيسى بن مريم كلمة الله بنص القرآن ، وقد حكم النصارى بقدّم عيسى وعبدوه ، وقد يجيىء قوم فيحكمون بقدّم القرآن ويمبدونه وذلك ضلال أى ضلال !! فالقول بخلق القرآن يسد هذا الباب ، ويمنع تعدد القدماء !! هذا قولهم وهو ظاهر التهافت والوهن اذ أن القياس هنا مع الفارق كما يقولون : فعيسى بشر والقرآن كلام .

هذا وسنبسط في الفصل القادم جوهر الخلاف بين المأمون وشيعته في خلق القرآن من ناحية ، وبين الامام أحمد وشيعته من ناحية ثانية ، الا أننا نقول هنا متسائلين ؟ هل أصاب القوم في هذا الارهاب الدموي الذي نشروه طولا وعرضا في الدولة الاسلامية من جراء هذا القول العجيب؟؟ وهل كان الاسلام يدعو الى الجبر والاكراه في اعتناق العقائد وكشف الآراء ؟ واذا كان المعتزلة ذوى حرية في البحث ، فهل تقتصر هذه الحرية عليهم وحدهم دون سواهم من طوائف الاسلام !! ان الواقع المرير قد كتب لهؤلاء الغلاة صحفا من المآثم والشرور . فمهما كان دافعهم الى القول بخلق القرآن معقولا مقبولا فلا يجيز لهم أن يشنوا ارهابا معتسفا ، يضطرب به الأمن وتمتلىء منه السجون ، وتصادر به الأرزاق ، وتسفك بسببه مئات الارواح لأناس مؤمنين يتمسكون بظواهر النص ، ويميشون في حدود تفكيرهم المتواضع ،

ولا تكلف نفس الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت !! فقيم
السف والطفيان ؟!

لقد خسر المعتزلة بهذا الطفيان الجائر مكاتبتهم لدى العامة بين
المسلمين ؟ ومنذ انطوى عهد المعتصم والوائق وجاء عهد المتوكل رأينا
هؤلاء الجبابرة يتهاوون ويتضاملون ، وقد انتشرت لهم فى الأفق
الاسلامى لائحة بغيضة باعدت بين الناس وتعاليمهم المنطقية الرائعة!!
وقد سجلنا فى فصل سابق أثرهم المجيد فى الدفاع عن الاسلام ،
ولكن محنة خلق القرآن قد محت هذا الأثر محوا عاصفا وصبغت
مابقى من أصوله بلوان كره لا تستسيغه كثير من النفوس !! وكنا
نتمنى الا يمر هؤلاء بهذا الدور الدموى العجيب ، حتى يزاولوا
نشاطهم العقلى دون أن يجدوا هذا الصدود الهائل من جمهور
المسلمين ، ولكنهم جنوا على أنفسهم جناية أليمة ، وذلك مايسطه
الاستاذ أحمد أمين اذ يقول ص ٢٠٣ من الجزء الثالث كان خيرا
للمسلمين ألا يدخل المعتزلة فى أحضان الدولة وأن يعيشوا كما
عاشوا فى عهد النصور وأول عهد المأمون فلو ساروا على هذا النهج
لاتنفع المسلمون من ذلك أكبر نفع ولتغير تاريخ الاسلام •

وقد كان المأمون هو المشجع الأول لهؤلاء على السيطرة السياسية
فى أنحاء الدولة فكرهتهم العامة ، وأقل نجمهم أفولا أليما وانقطع
ما كان يرجوه المسلمون على يديهم من توثب ونهوض •
وبعد أفليس الذنب فى كل ذلك ينتهى الى المأمون ؟!

بيت القصيد

بيت القصيد في كل شيء جوهره ولبابه وبيت القصيد في هذه المحنة التي نكب بها المسلمون دون ما داع ملح هو القول بخلق القرآن ..

فما معنى هذا القول ؟ وما وجهه ؟؟ ثم ما رأى الذين عارضوه وناهضوه وهل يمكن أن يتلاقى الرأيان في طريق واحد أو أن بينهما من الفروق مدى يتسع ويزيد ؟ ! لقد قال المعتزلة بخلق القرآن لانهم قالوا بالتوحيد المطلق ومعناه أن ذات الله وصفاته شيء واحد لا يقبل التجزئة بحال من الاحوال ، واذا كان الله وصفاته وحدة لا تقبل التغير فجميع صفات المعاني من قدرة وارادة وعلم وكلام وسمع وبصر منفية عنه سبحانه وتعالى والا كانت قديمة بقدم ذاته فيتعدد القدماء وذلك محال ! واذا قيل ان الله عالم أو قادر أو سميع فعلمه وقدرته وسمعه لذاته لا بشيء زائد عنه لأنه لو كان كالانسان يعلم بشيء زائد عن ذاته لكان هناك صفة وموصوف وحامل ومحمول وهذه حالة الاجسام والله منزه عن الجسمية ، واذن فجميع صفات المعاني منفية عن الله ! والقرآن كتاب الله وكلامه فهل معنى ذلك انه صفة من صفاته ؟ لو كان الأمر كذلك لكان الله ذاتا وصفته شيئا واحدا ولكان القرآن أزليا وهو يتضمن أمرا ونهيا لأناس وجدوا بعد أمم كبير ومحال أن يكون المعدوم مأمورا والأمر لغير مأمور عبث لا يصدر عن حكيم هذا دليلهم العقلي ! أما النقل (١)

١ - فقد قال الله تعالى واذا قال ربك للملائكة ، واذا غرط زمان ماض فيكون قوله في الواقع مختصا بزمان معين والمختص بزمان محدث .

٢ - يقول الله .. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ، وهذا يدل

(١) ضحى الاسلام ص ٣٥ ج ٣

على أن القرآن مركب من الآيات التي هي أجزاء متعاقبة فيكون حادثاً ..
٣ - قوله تعالى «حتى يسمع كلام الله» والمسموع حادث لأنه لا يكون
إلا حرفاً وصوتاً .

٤ - انه تعالى عبر عن القرآن بقوله «انا أنزلناه» ولا شك انه لا انزال
فى الأزل .

٥ - ان القرآن نص على نسخ بعض الآيات بقوله : « ما ننسخ من
آية أو ننسها نأت بخير منها » ولا يتصور النسخ الا فى الحادث لأن
القديم ليس عرضة لذلك .

هذا رأى المعتزلة ! فما رأى أحمد فى هذا الموضوع ؟ .

ذكر بعض المؤرخين أن أحمد كان يتوقف فى هذا الأمر فلا
يخوض اطلاقاً مع الحائضين ينفى أو اثبات لأن الصحابة وعلماء السلف
لم يتجهوا هذا الاتجاه وقد دعا الرسول أهل الجاهلية الى عبادة الله
وبشرح لهم قواعد الاسلام وانطلق الدعاة من صحابته الأخيار فى فجاج
الأرض ينشرون هدية ويثيرون مصباحه فما قال أحدهم ان القرآن
مخلوق واذن فطريق السلف يفاير ما يراه من لجة فى الجدل وتأويل
لظواهر النصوص ! وتمسك بالقياس النظرى مما يبتعد عن روح
الدين ولا يتفق وسننه المتبعة فى أزهى عصوره الماضيات .

ونحن نرى أن أحمد لو توقف ولم يد رآيه الصريح ما كابد ظلمات
السجن ونيران السياط لأن الذى أرمض قلوب خصومه تصميمه الجازم
على أن القرآن غير مخلوق ! وقد كانوا يحاولون بثتى المغريات أن
يزحزحوه قليلاً عن هذا التصميم فما نجحوا فى قليل أو كثير بل ان
أحمد بعد المحنة عاتب من توقف ولم يقطع برأى ولو كان متوقفاً
ما حرم على أناس ما أحله .. فالامام لم يتوقف بل جهر بما يعتقد أنه
الحق الأكيد .. واذن فما رأى أحمد الصريح ؟ ان الذى يراجع أدلته
واجاباته المختلفة أمام متحنيه من أئمة المعتزلة يراه يجزم بأن القرآن
كلام الله غير مخلوق .. وأمامنا نص صريح فى كتابه الى المتوكل
بعد انقشاع الغمة حيث قال بعد تمهيد طويل فى ذم اللجاج والاختلاف

وتأويل القرآن ونجزته وفق الآراء والأهواء وقد قال الله تعالى :
 « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله »
 وقال : « ألا له الخلق والامر » فأخبر أن الأمر غير الخلق — وقال عز
 وجل « الرحمن • علم القرآن • خلق الإنسان • علمه البيان » فأخبر
 ان القرآن من علمه وقال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى
 حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد
 الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » وقال « ولئن
 أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم
 وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك
 من العلم لك اذن من الظالمين » وقال تعالى : « وكذلك أنزلناه حكما
 عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى
 ولا واق » فالقرآن من علم الله !!

وفى هذه الآيات دليل على أن الذى جاءه هو القرآن ؟ لقوله « ولئن
 اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم » وقد روى عن غير واحد ممن
 مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق وهو الذى
 اذهب اليه لست بصاحب كلام ولا أدري الكلام فى شيء من هذا الا ما
 كان من كتاب الله أوفى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن
 أصحابه أو عن التابعين فأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود ، •
 ونستطيع أن نلخص رأى الامام فنقول القرآن من علم الله وعلم الله
 غير مخلوق فالقرآن غير مخلوق •

كما نستطيع أن نلخص رأى المعتزلة فنقول •• القرآن كلام الله
 وهو مركب من حروف متعاقبة فى الوجود وكل ما هو كذلك فهو
 حادث فالقرآن حادث مخلوق ••

هذان هما الرأيان اللذان شغلا العقول وأرهما الناس وما كان
 للمأمون وشيعته من بعده أن يجعلوا منهما هما فاصبا تلهى به الدولة
 عن كل شيء فتفرغ من شؤون الادارة وتبعت الثورات ورعاية الأمن
 الى جدل عميق مشتجر يمتحن فيه العامة والخاصة !!!

وطبيعى أن العامة لا يستشفون لباب هذا الجدل فهم أعداء مالا
بالفنون وكلما زادت اللجاجة وامتد الارهاب زاد غضب العامة وتباعدا
عن الخلافة ورأوا أن أمور الدولة تصرف فى أيدي قوم من الملاحدة
لا يستشعرون رحمة أو شفقة بل يعذبون ويقتلون ويسجنون دون
ايمان برادع أو بعقل يشير ..

وقد مرت الايام فأنكشف الجدل المتطاحن عن خلاف لفظى يتعلق
بالعرض ولا يصل الى الجوهر فى شىء . وقد محصه أبو الحسن
الاشعرى حين قال ما ملخصه .. ان كلام الانسان يطلق على الصوت
المسموع ويطلق على حديث النفس حين نلجأ الى التفكير والتأمل ،
وكلام الله كذلك يطلق على المعنى النفسى القائم بذاته وهو أزلى قديم
كما يقول أحمد ، ويخيل الى أن الارهاب الوحشى قد حال دون ايضاح
الامر فى حينه ، فلو أن المعتزلة قد منعوا كل ارهاب ، وأفسحوا مجال
الحرية دون تعنت وتضييق لوصل الفريقان الى رأى صائب سليم ولكن
ظلم هؤلاء فى الفعل قد وقف دون حقهم فى القول فكرههم الناس على
صدقهم الاكيد ... وهكذا تثبت الايام أن الحق لا ينشر فى ظلال
الجور والعسف بل لا بد أن تتآخى جميع الفضائل فيكون هناك
حق وعدل وحرية ومساواة أما أن نستعين بالباطل لتأييد الحق فهذا
ما يطمس للألاء ويجعله على صدقه الواضح زورا صارخا وبهتاناً أى
بهتان !!!

لسنا نلوم أحمد أن امتنع عن تقرير شىء لم يتبينه مهما كان حقاً
أكيدا ، ولكننا نلوم أناسا ينادون بالحرية ويفسحون لأنفسهم منها
مجالا واسعا فى الحجاج والنقاش ثم لا يتركون لغيرهم شيئا مما
يأخذون .. وليت شعري ماجدوى الشمس المشرقة ان تمتع بنورها
سواك وبقيت فى سجن مظلم لا يتسرب اليك شعاع من منفذ .. أو
بريق من كوة ؟ لك أن تبغض الشمس اذ ذاك . ولا تأس عليها فى شىء
ان آذنت بالغروب والوداع !! انى لأفكر فى أدوار هذه القضية
المدهشة فأعجب عجباً لا يقف عند حد فقد تناقضت فصولها تناقضاً

يدعو الى الحيرة والدهشة !! ففي زمن معين يكون القول بخلق القرآن زندقة فاضحة والحادا دونه كل الحاد ثم يحكم على القاتل بالاعدام ويصلب جسده أمام الناس ، ثم في عهد آخر يصبح القول بعدم خلق القرآن تهمة شنيعة تسفك فيها الدماء وتتطاير الرقاب وما تنقضى أيام حتى يعود العهد الاول فيصبح القول بالخلق زندقة مارقة ، وفسوقا خارقا ، وارتدادا عن الدين تطلق معه الزوجات ويشرد الابناء !!

والمسلمون هم المسلمون وكتاب الله هو كتاب الله ان ذلك ليذكرني بأسطورة قديمة خلاصتها أن رجلا دخل الى احدى بلاد الصين فهم بشراء سلعة من السلع وقدم قطعة ذهبية فقبض عليه لفوره اذ أن الدولة تتعامل بالنحاس لا بالذهب فذهل ذهولا عجيبا لما رآه ، ثم أطلق سراحه بعد أن استوفى مدة سجنه وذهب لشراء سلعة ثانية فبحث عن قطعة نحاس وقدمها للبائع فقبض عليه لفوره اذ أن الدولة قررت أن تتعامل بالذهب لا بالنحاس وقبل أن يذهب الرجل الى سجنه مرة ثانية طلب أن يقف على رأس جبل وينادى ، فأجيب الى ما طلب ووقف ليصيح .. « رباه .. أنا المجنون أم هؤلاء ؟ » لقد قال الجعد بن درهم بخلق القرآن في أواخر العهد الأموي فقطعت رقبتة وصلب جسده برأى من الناس .. ثم قال به بشر بن غياث المريسي في عهد الرشيد فطرد من مجالس العلم وتمقبه هارون قائلا : « لئن أظفرتني الله به لأقتلنه » ومع أن النأمون قد جاء بعد الرشيد بمدى قريب فان القضية قد عكست في عهده ، وأصبح من يقول بالخلق هدفا للقتل والتعذيب واشتعلت النار في عهدى المعتصم والواثق حتى اذا جاء المتوكل انقلبت القضية مرة ثالثة فأصبح من يقول بالخلق زنديقا يلجأ الى التستر والهروب ؟ فهل لنا أن نقول مع الاسطورة الصينية من المجنون أولئك أم هؤلاء ؟

على أن اهتمام الناس رؤساء ورعية بهذا الحديث الجلل قد دفعهم الى ضرب من التندر السافر يظنه الغبان فكهاة عابرة وهو

صدى شعور مكبوت يحتدم ويتطلب التنفيس ببعض الشيء فيلجأ
الى الدعاية والمرح في ظاهر الأمر ؛ أما الباطن فتقرع اليه وتأنب
مض يلح بعيدا بعيدا دون أن يصرح به فطن يحذر العاقبة ،
ويترصد الدوائر !

دخل عبادة المخنث على الواثق وقال له : يا أمير المؤمنين عظم
الله أجرك في القرآن ، قال ! ويلك القرآن يموت ؟ قال .. يا أمير
المؤمنين كل مخلوق يموت وبالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس
التراويح اذا مات القرآن فضحك الخليفة وقال . قاتلك الله أمسك !

وسواء أكان عبادة المخنث صاحب الامر في هذا السؤال عن
شعور نفسى قام بذاته ؟ أم أن أحد خصوم المعتزلة قد لقنه هذه
السؤال ؟ فان مغزاه الصائب واضح الدلالة في كل لفظة وحرف .
ثم اننا لنعجب كيف يخوض العامة مخاضا لا يألونه ولا يستطيعون
له سبحا ، وها هو ذا أحدهم يشبه القرآن بالانسان فيتساءل عن
موته وحياته كما يموت الانسان ويحيا سواء بسواء ألم يكن من
الواجب أن ينصرف الناس عن مطاحنات تضر ولا تنفع وتورث
الضغائن السود ، بدل أن تجمع القلوب على حب دائم وود عميق !
تلك كبيرة خطيرة ! وعسى أن نأخذ منها أبلغ العبر وأوضح
العظات !

عاصفة

كانت بغداد هادئة وادعة لا تكدر سماءها سحابة غائصة حتى جاء كتاب من المأمون الى عامله اسحق بن ابراهيم يأمره فيه أن يجمع القضاة والمحدثين وأرباب الفتوى من العلماء ليمتحنهم في موضوع خلق القرآن ، واسحاق رجل ادارة وسياسة لا يحذق شيئاً من الجدل ولا يعرف أى مرمى يهدف اليه الخليفة انما يقرأ الكتاب القادم اليه فيلس الاهتمام البالغ ويدرك حرص سيده على تنفيذ أمره تنفيذا صارما لا هوادة فيه ولا ابطاء ! فيقول فى نفسه قد تكون المسألة مشكلة دينية خطيرة لا أفهم كنهها الصحيح وما على الا أن أهـذ الامر فى سرعة طائفة ووثب عجول ..

وسار الناس فى انحاء المدينة فوجدوا أئمتهم من الفقهاء يساقون معجلين الى بيت الحاكم وقد دار همس مربب فمن قائل انهم سيمتحنون وقائل انهم سيبعدون حتى اذا علا الهمس خفوا عجالا الى منزل اسحاق وأرهقوا السمع فوجدوا كاتبه يقرأ من كتاب أمير المؤمنين (وقد عرف أمير المؤمنين ان الجمهور الاعظم والسواد الاكبر من حشوا الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال لجلالة الله وهدايته ولا استضاءة لنور العلم وبرهانه فى جميع الآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوجيهه ...

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظا والمنجوسون من الايمان نصيبا . وأحق من يتهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله فانه لا عمل الا بعد يقين .. فاجمع من بحضرتك من القضاة ، وأقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك فأبدأ بامتحانهم فيما يقولون

وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وأحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده .. واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك ان شاء الله (١) »

وفد هذا الخطاب الى بغداد ومصر ودمشق والكوفة فأحدث صده المزعج دويا مرعبا وقد قام الوالى بما يقوم به التابع المطيع فأحضر من عناهم الخطاب وقام بالامتحان على وجه المطلوب ونحن لانفعل التنويه بروح السيطرة والاستعلاء في خطاب الخليفة ونظره الى من يخالفه نظرة الاحتقار والازدراء ثم التهمج الفاحش على من يسيهم سفلة العامة وحشو الأمة ...

وهم رعيته التى تزيد من بأسه وتمد في سلطانه ... ولم يكد يرسل خطابه الاول حتى عجل بخطاب ثان يستدعى به سبعة من كبار المحدثين في بغداد ليتولى امتحانهم بنفسه . وقد كان بارعا في مطلبه اذ أن امتحان هؤلاء بمدينة السلام بعيدا عن عين الخليفة قد يبعث فيهم الجرأة فيعارضون قوله ، ويسفهون رأيه ثم تتناقل العامة مناوأتهم السافرة فيحلونهم محل التقدير والاحلال ، أما اذا كان الامتحان بين يدى المأمون وقد قام الحراس بالسلاح وأعدت السياط للمنابذين وطفئت الرهبة على النفوس فهذا مما يميل بهؤلاء الى السلامة فيؤثرون التسليم ... وذلك ماكان في واقع الامر حيث سافر هؤلاء الى الخليفة ووافقوه لقية وحذرا ، وعجيب ألا يكون من بينهم أحمد بن حنبل فهل كان لهذا الامد غير جهير في معشره أو ذويه !! لانظن ذلك ! بل ان الخليفة توقع شدة مراسه ، وصلابة عوده فأمر أن ينحيه عن الامتحان الاول بدليل أن ابن أبى دؤاد قد ذكر في مجلس المعتصم فيما بعد أنه كان بين السبعة ولكنه حذف اسمه رحمة به ..

وابن أبى دؤاد لا يرحم ولكنه يستعمل الحيلة لانجاح خطته في

وقت سريع .. وقد عد المأمون موافقة هؤلاء نصرا مؤزرا وأمر
بإذاعة اذعانهم في كل مكان ... وعزز بخطاب ثالث الى بغداد ملاءم
بالنصوص القرآنية والتأويل النظري مما يوضح مذهبه ثم بالغ في
وجوب الامتحان والتشدد ، مع من يحجمون ولا يقدمون وانتظر
الرد السريع في مدى قريب .

جمع اسحاق أكابر العلماء في مدينته ودارت مناقشات محتدمة
علا فيها صوت القوة وجلجلت الرهبة بدويها المفزع فوافق من وافق
عن خوف وحذر ، وعارض من عارض عن ايمان ورسوخ ثم بعث
اسحق بما سمع الى المأمون فجاءه الكتاب الرابع يحتدم غيظا ويفلئ
غضباً وحفيظة وقد انحدر فيه الخليفة الى مستوى لا ينبغي أن يهوى
اليه من منزلته السماء !! !!

فهو يتعرض الى كل فقيه بالتجريح والتشهير ويتغلغل في حياته
الخاصة وأمور منزله ومعاشه ، مما لانظن خليفة عظيماً يحيط به ،
ويدريه الا أن يكون قد وكل كتابته الى سواه واكتفى بالتوقيع
وسواء كتب الخليفة كتابه أم عهد به الى غيره فهو صورة مزعجة من
التحدى الصارخ ولون مظلم من ألوان العنت والتضييق !! !! وقد
كان لهذا الخطاب دويه ، فاجتمع المحدثون ودار النقاش في أفق
كريه يغمره الارهاب المفزع حتى وافق الكثيرون وامتنع عالمان كيران
هما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح .. فسيقا مصفدين بالاغلال الى
المأمون بطرسوس ولكن رحمة الله تداركت محمد بن نوح فمات في
طريقه متأثراً بشدة الحديد على ضعف في الجسم وتقدم في العمر ،
وقد دمت عين أحمد وأقام صلاة الجنازة على زميله الصابر المحتسب
وكانت ساعة خاشعة وقف فيها امام بين يدي ربه ليودع اماماً يعتقد
انه سيلحق به عن قريب اما المأمون فقد عصم الله أحمد من حسابه
فمات قبل أن يراه ... ولت المحنة مات بل انه ترك وصيته الى
المعتصم ليقوم بالامتحان على أقسى وجه وأبشع تصريف ...

رجع أحمد الى السجن ، ولم يكن يخشاه بل كان يرى فيه ظلمته وهدوئه متسعا للتأمل فالرجل زاهد بطبيعته وقد كان طليقا لا يميل الى زخرف حياة أو زينة معاش ... ثم أصبح مقيدا كمطلق .. يسأل الله الثبات على الحق والشهادة في سبيل الايمان .. وقد توافدت رسل المعتصم اليه في سجنه يفرونه مرة بالثراء والحظوة ان استكان وأجاب ويناقشونه القول معتسفين باللجاجة والقياس ان عارض ، ثم مهددين بالقتل والصلب ان استمر والرجل يتربص مصيره المحتوم صابرا غير جازع ثابتا غير مضطرب وقد حضر مجلس المعتصم ثلاث مرات طوال في ثلاثة أيام !! وفي كل مجلس يدور نقاش مضطرب بين أعزل ضعيف واهن وفريق مسلح بالقوة والمنطق والجاه ، يقول الامام رأيا فيجيبه أكثر من عشرة مناظرين وكل يلتمس الخطوة لدى المعتصم في تجن سافر أو مغالطة منكرة ، أو تهجم دنيء ولا هدف لذلك غير أحمد وقد كان موقف المعتصم غريبا كل الغرابة فقد كان يشعره واحساسه يتجه الى أحمد ولكنه ينظر فيجد كبير القوم ابن أبي دؤاد يصيح به ... مضل فاسق ، أقتله يا مولاي ، دمه في رقبتى لا رقبتك حين تلقى الله وقد تواطأ أهل مجلسه من أئمة المعتزلة على الافتاء بقتله وتعذيبه وقد عرف ابن أبي دؤاد كيف يثير غضب المعتصم فذكر له أن العامة تقول ان أحمد قد غلب خليفتي وانه زعم انه دعا على المأمون فقتله الله !! والمعتصم حائر متردد لا يدرى وجه الحق في ما يدور حتى غلبته الكثرة فأصدر أمره بتعذيب الامام فهوت السياط محرقة فوق بدنه النحيل ، ونلخص بعض ما دار في مجالس المعتصم الثلاثة ليرى الناس شجاعة أحمد وثباته فيكون مثلا أعلى للعقيدة المكافحة والتصميم الاكيد !!

دخل أحمد مجلس المحاكمة فنظر المعتصم الى شيخ أسمر اللون مديد القامة قد قوسه مر السنين وتعاقب الاهوال ونظر الى قيوده في كفه فشر برهبة موحشة ضاقت بها نفسه ، ثم استمع الى صوت رزين ينبعث « السلام عليك يا أمير المؤمنين » فلم يتمالك أن قال

فى ادب ... اجلس ثم التفت يقول لأصحابه .. اما زعمتم انه شاب
حدث السن . فلم يجيبوا بشىء فقال أحمد ..

— أتأذن لى بالكلام يا أمير المؤمنين !! !!

— تكلم كما تريد

— الام دعا ابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم ؟

— دعا الى شهادة ان لا اله الا الله ..

— فأنا أشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله !!

سكت المعتصم ولم يرد فانتهازها أحمد فرصة سانحة وقال ..
ان هؤلاء يا أمير المؤمنين يدعوننى ان اقول .. ان القرآن مخلوق
وهو شىء لا أجده فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله يا أمير
المؤمنين .. قد حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة قال حدثنا أبو حمزة
قال سمعت ابن عباس يقول ان وفد عبد القيس لما قدموا على رسول
الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالايمان بالله فقال أتدرون ما الايمان
قالوا ... الله ورسوله أعلم ، قال .. شهادة ان لا اله الا الله وان
محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وأن
تعطوا الخمس من المغنم فهذا مايرد به جدك وليس فيه شىء مما
يدعيه هؤلاء من خلق القرآن ..

فقال المعتصم متراجعا ... انى لم آمر فيك بشىء وله لا أنى
وجدتك فى يد من كان قبلى ما تعرضت لك ... ثم يلتفت الى
أصحابه ويقول .. ناظروه ، فيقول أحدهم :

— ما رأيك فى القرآن ؟

فيسأل أحمد ما رأيك فى علم الله ؟ فيسكت المعتزلى فيقول
أحمد .. القرآن من علم الله ، فمن زعم ان القرآن مخلوق فقد زعم
ان علم الله مخلوق ومن قال بذلك فقد كفر ..

— معتزلى آخر .. قال الله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من

ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون) أ يكون الذكر محدثا وهو غير مخلوق ؟

أحمد ... تلك ليست فيها ألف ولا م فهي غير القرآن والله يقول والقرآن ذى الذكر ، بألف ولا م وهو القرآن !!

معتزلى آخر أ كان الله ولا قرآن ؟!

أحمد ... أ كان الله ولا علم !

معتزلى ... أ ليس الله خالق كل شىء ..

أحمد بلى !

المعتزلى - والقرآن شىء فهو مخلوق ..

أحمد - قال تعالى .. تدمر كل شىء بأمر ربها فهل دمرت
الا ما أ راد الله ..

(ينقطع المعتزلى)

معتزلى آخر - ما تقول فى حديث عمران بن حصين .. ان الله خلق الذكر ..

أحمد - روى هذا الحديث كما يلى :

« ان الله كتب الذكر ولم يرد ان الله خلق الذكر »

معتزلى - هناك حديث آخر يقول ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي ..

أحمد - انما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والارض ولم يقع على القرآن ...

معتزلى - لقد قال الله تعالى .. انا جعلناه قرآنا عربيا أ فيكون مجعولا الا وهو مخلوق ..

أحمد - قال تعالى فجعلهم كمصف ماكول ؟ أ يكون المعنى
فخلقهم

أحمد بن أبى دؤاد - ان تثبتك بأن القرآن كلام الله غير
مخلوق معناه انك تنسب الى الله جوارح تكلم بها
كالمخلوقين وتشبيه الله بالمخلوقات كفر .

أحمد - هو أحد صمد لا شبيه له ولا عدل ، وهو كما
وصف به نفسه .

المعتصم - ويحك ماتقول ؟

أحمد - يا أمير المؤمنين اعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة
رسوله ..

ابن أبى دؤاد - انه ضال مبتدع يا أمير المؤمنين ..

ثم يخلو المجلس من أحمد فيصيح المعتصم انه لفيقه وانه لعالم
وانى ليسرنى أن يكون معى يرد على أهل الملك ، ولئن أجبني الى
شئ مما أدعوه اليه لأطلقن عنه القيود بيندى ولأركبن اليه بنجدي
ولأقدمنه حتى أطأ عقبه ..

هنا يتأجج الحقد فى صدور القوم ويصيح أحدهم .. يا أمير
المؤمنين ماذا تقول لابن عمك رسول الله اذا عاتبك يوم القيامة وقال
لك تركت ابن حنبل يضل الناس .

ويقول ثان .. لقد بلغ من سوء أدبه ان ادعى ان الله قد
أما المأمون انتقاماً له ... وأذاع ذلك فى العامة فصدقوه ..

ويقول ثالث .. وانه وصف خليفة الله المأمون بالفاجر ! حتى
عرف بذلك عند الناس فاقتله يا أمير المؤمنين ..

- المعتصم - وكيف قتله وقد بلغنى أن الناس قد ملئوا
الطرق والميادين ووقفوا بأبواب الشوارع وأخذوا أسلحتهم وهم
يقولون .. ابن حنبل يفتن اليوم ..

- معتزلى .. ومتى كان رعاى الناس يا أمير المؤمنين حكماً
فيما لا يفهمون .. ان هذا ادعى الى ان نعالجه قبل ان يستفحل

أمره !! وقد أحضره المأمون من بغداد ليشهد مصرعه بطرسوس ...
وهكذا وقع الخليفة الساذج فريسة لحاشية متعصبة فأصدر
أمره بالعقاب ..

ودفا الموعد الرهيب ..

كان ثبات الامام في المناظرة موضع الدهشة والارتباك من
مناظريه فقد حسبوا أقسمهم بجمعهم الحاشد وأسئلته المهيأة أمام
انسان مضطرب جامد لا يتصرف في حجة ولا يقدر على اقناع وخيل
اليهم ان المعتصم سيحتقره احتقارا كريها حين يفهم فلا يجيب ،
فانقلب الوضع فجأة الى غير ما يظنون فان سألوه عن خلق القرآن
سألهم عن علم الله وان ذكروا له عاما خصه أو حديثا مختلا
صححه !! حتى اضطروا الى اللجاج في أقيسة منطقية فقطع عليهم
القول ، بطلب شيء من الكتاب والسنة ومناظر كهذا الرجل لا ينال
بسهولة من خصمه ، بل لابد من سلاح آخر غير الجدل واللجاج
فكان الدس واختلاق الأكاذيب عن أحمد في المأمون سبيل ذلك وهو
سبيل خطر يهيج عاطفة المعتصم ويستفز غضبه وتهوره !! فيصدر
أمره بالعقاب السريع ولئن ثبت الامام في ميدان الصراع الفكري قد
كان ثباته في ميدان الصراع الجسدي - على ضعفه الواهن - أروع
وأعجب فقد اختير له الأشداء من الجلادين والهائل المرعب من الشياطين
وانطلقت النار ترعى البدن العليل دون خشية أو اشتفاق واليك الماما
موجزا ببعض ماكان !!

لقد انكشفت بصيرة أحمد عما سيناله في غده فرأى من وراء
الغيب ما أعد له من تعذيب وارهاق وكان يتمنى أن يضرب بالسيف
مرة واحدة فيلقى الله دوان أن يفتن وأخوف ماكان يخافه أن تأخذه
السياط فتوجعه شدتها الملتبها ايجاعا يضطر معه الى التفوه بما
يريدون !! وفي صباح هذا اليوم الحرج دعا بخيط وشد به فتكة
سراويله كيلا تسقط من أثر الضرب فتتكشف سوءته ويتحدث بذلك
الناس ثم حرص على ثلاث شعرات من آثار رسول الله صلى الله عليه

وسلم فضعها الى قيصره لتكون نورا وضيا يهديه في ظلمات قبره
ووسيلة طيبة للشفاعة - فى اعتقاده - يوم يقف بين يدى الله وابتدا
المجلس بالمناظرة فأصر أحمد على رأيه !!! ولن أستطيع أن أصف
ما قال الرجل المتحن من ظلم فادح فى يومه فلأترك ذلك لولده صالح
فقد نقله عن أبيه ورواه الذهبى قال (١) : قال صالح .. قال أبى ، لما
جىء بالسياط نظر اليها المعتصم وقال اتونى بغيرها ثم قال للجلادين ..
تقدموا ، فجعل يتقدم الى الرجل منهم فيضربنى سوطين ، فيقول
له .. شد قطع الله يدك ، ثم ينتحى ويقوم الآخر فيضربنى سوطين
وهو يقول فى كل ذلك شد قطع الله يدك ، فلما ضربت تسعة عشر
سوطا قام الى - يعنى المعتصم - وقال يا أحمد علام تقتل نفسك
وانى والله عليك لشفيق قال فجعل عجيف - أحد الجلادين -
ينخسنى بقائمة بسيفه ويقول أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم وجعل بعضهم
يقول .. ويلك ، الخليفة على رأسك قائم وقال بعضهم يا أمير المؤمنين
دمه فى عنقى ، اقتله وجعلوا يقولون يا أمير المؤمنين أنت صائم وانت
فى الشمس قائم . فقال لى .. ويحك يا أحمد ماتقول ؟ فأقول ..
اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم
أقول به ، فرجع وجلس وقال للجلاد ... تقدم وأوجع ، قطع الله
يدك ، ثم قام الثانية فجعل يقول .. ويحك يا أحمد أجبنى فجعلوا
يقبلون على ويقولون .. يا أحمد امامك على رأسك قائم .. وجعل
عبد الرحمن يقول .. من صنع من أصحابك فى هذا الامر ماتصنع ؟
وجعل المعتصم يقول .. ويحك أجبنى الى شىء لك فيه أدنى فرج
حتى أطلق عنك يدي فقلت يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب
الله فيرجع ، ويقول للجلادين .. تقدموا ، فجعل الجلاد يتقدم
ويضربنى سوطين ويتنحى وهو فى خلال ذلك يقول شد قطع الله يدك ،
قال أبى فذهب عقلى فأفقت بعد ذلك فاذا القيود قد أطلقت عنى
فقال لى رجل ممن حضر انا كبيناك على وجهك وطرخناك على ظهرك
ودسناك فما شعرت بذلك وأتوني بسويق فقالوا لى اشرب وثقيا

فقلت لا أفطر ثم جىء بى الى دار اسحق بن ابراهيم فحضرت الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى فلما اقبل من الصلاة قال لى .. صليت والدم يسيل فى ثوبك .. فقلت .. قد صلى عمر وجرحه يشب دما . هذه رواية أحمد .. وقد آثرت نقلها دون أن أنصرف فى تصويرها اذ شعرت بضيق نفسى يمنى أن أرسم هذا المشهد الظالم لانسان يعذب دون جريرة فوق أن رواية أحمد نفسها تخلو عن كل تزيد ومبالغة فأتت تستطيع أن تأخذ من سطورها القليلة فصولا دامية للأساة اليمة تنفطر لها الأكباد .. وهى بعد مثل جليل للصبر فى ذات الله وعلى من يخترعون أقاصيص البطولة ان يقرأوا هذه القصة الواقعية ليعلموا أن فى دنيا الناس مايقوق غرائب الخيال ...

يا للايمان ، انسان يغمى عليه من الشياطين فى حمارة القيظ فاذا جىء له بماء صاح انى صائم .. ثم ينهض الى صلاة الظهر ويسأله السائل عن دمه الفائز فيستشهد بعمر ؟ ألا يذكرنا ذلك بموقفه اذ تقدم بين يدي المعتصم لامتحانه ، وهو يرى السيف والنطع ويلمح العيون تتطاير بالشرر فيسأل فقيها بين الحاضرين عن حديث رواه الشافعى فى مسح الخفين ونسبه احمد .. حتى ليصبح ابن أبى دؤاد متعجبا !!! انسان يسأل عن صحة حديث !! وأمامه السيف والنطع وعن يمينه وشماله الجلاد والسيف والسياط ! ذلك ايمان عجيب .. لقد هاج العامة غداة ضرب احمد وجاءت الأنباء ترن فى أذن المعتصم ان الثورة توشك ان تنهب فتراجع مأخوذا عن قتل الامام ، وأراد أن يسكن النائرة فاستدعى عم أحمد وطلب اليه أن يصبح فى الجموع ... لقد استلمت ابن أخى سليما معافى ثم رأى الخليفة من الحزم أن يرسل للمريض الخائر طبيبا يقوم على رعايته وتضميد جروحه .. وقد اقترح عليه ابن أبى دؤاد أن يودع السجن بعدالسياط فغضبالمعتصم وصاح فى وجهه مستبشعا ثم رده الى داره وخلع عليه خلعا سنية !! ثم أمر عامله اسحق أن يستفسر عن صحته يوميا ، وأن يرفع أخبارها اليه ، ولعل خوف الخليفة من العامة مضافا الى ندمه اللاذع

وتأنيبه النفسى التائر قد كان داعيا الى هذا المسلك المعتذر !! ومن
الطريف ان أحمد قد باع الخلعة المهداة وتصدق بثمنها على الفقراء !!
على أن صبر احمد عند السياط قد آزره صبر آخر لدى العلاج
فقد تعرض الى عذاب ممض قامت به المشارط الحادة دون هوادة
أو رضا بالتخدير والاستغفاء ، جاءه الطبيب فحدثه ان بجسمه لحما
متغفنا لا مناص من قطعه ، وجاء بحديدة فجعل يعلق اللحم بها ويقطعه
بسكين معه وهو صابر لذلك يحمد الله ويسبحه حتى برأ ولم يزل
يتوجع حتى انتقل الى رحمة الله (١) .

هذه قصة الصبر العجيب التى مثلها أحمد ولعمري لقد آمن
الرجل بمثل هان بازائها كل ما يلقاه .. وانك لتبحث عن مفتاح
الثبات فى قضية أحمد فلا تجد غير الايمان فبايمانه الوطيد !! سار
الى لقاء المأمون غير مكترث بما يتهده من أهوال .. وبايمانه الوطيد
قابل الجدل فى معركة صاخبة بجدل هادى رزين وبايمانه الوطيد
صبر على الشرط الجارح يقد جسمه قدا دون تريت وابطاء ..
وبايمانه الوطيد صار حديث الدليل واعجاب الأجيال ..

واها على المعتصم .. لقد تردد ثم صمم .. ثم ندم .. ولولا
وصية المأمون ما أقدم على أمثال هذه الجريرة النكراء !! ولكن
لا ضير فقد قدم بجريرته العظيمة للأجيال المتعاقبة مثلا للرجولة يعز
نظيره ، وأصبح ابن حنبل الصابر المثالى والطود الأشم والذروة التى
لا تنال ، لقد دخل الامام بمحتته الكير المحرق وخرج كما يقول بشر
ابن الحارث ذهبة حمراء .. وهكذا الر حل .

(١) ابن حنبل والمحنة ص ١٥٤ نقلا عن الحلية لابی نعيم

جنود مجهولون

لو ذهبت تعد الجنود المجهولين على فرض معرفتهم - في كل حادثة من حوادث التاريخ لاستحال عليك أن تجد الى حصرهم من سبيل ، فهم مجهولون حقا بلا نزاع .. وقد اقتضت سنن المجتمع أن يظلوا هكذا مجهولين مستترين اذ أن ذاكرة الأيام أضال من أن تتسع للجميع !!!

على أن هؤلاء المجهولين مع خفائهم الطامس هم أصحاب المواقف الحاسمة في كل أمر ، وما الجنود المعروفون غير قادة سلطت عليهم الأضواء فاعتلوا قمة الشهرة !! وتردد حديثهم في مسامع الأجيال ولو كانوا وحدهم في الميدان دون المجهولين ما حسم أمر أو انتهت مشكلة .. ولكنهم ظفروا بنصيب الأسد في الخلود وطارت أحاديث غيرهم أباديد !!

ففى محنة خلق القرآني مثلا سفكت دماء كثيرة لجنود بررة من المجهولين وما ظنك بمحنة تمتد ستة عشر عاما في مصر ودمشق والكوفة وبغداد ، وفي كل يوم سؤال قتل فدفن !! فاذا ذهبت تسأل التاريخ عن أسماء هؤلاء الشهداء على كثرتهم الكائرة فلن تجد غير بضعة أشخاص !! مع ان الضحايا من أئمة الفقهاء وخيرة المحدثين ، ولم يكونوا من حشو العامة وسفلة الرعاع كما يقول خطاب المأمون !!
قآين اذن حديث هؤلاء ؟ !!

لقد ذاع حديث الامام احمد في محنته فكان شمسا كسفت مأحولها من نجوم .. ولعل اخلاص أحمد وثباته وما اليها من صفاته الحميدة قد كان سببا في خلوده - واشتهاره ، فنحن لانستكر عليه

صيته الذائع ولكننا نتذكر هؤلاء المجهولين .. فتشعر بكثير من العطف والرحمة والثناء .. ونستمطر عليهم سحائب الرحمة ، وهى كما نرجوه هامية عليهم صباح مساء فى ملتهم العلوى الرقيب !! ومع هذا الصمت المطبق عن مثلت ذهبوا مستشهدين فى حومة جر اليها التسيطر واللجاج والطفيان !! !! فاننا نجد بين السطور المتشابكة أحاديث خاطفة عن أربعة رجال لقوا سوء المصير فى الدنيا وحسن القبول فى الآخرة ، وقد سجل التاريخ أسماءهم فى حواشى المحنة فلم يعودوا من المجهولين !! !! ولا يمكننا وقد أحطنا خبرا بما كابدوه أن نفعل الحديث عن ثباتهم الرائع وإيمانهم العجيب ...

وهم بعد مثل متواضع لضحايا مجهولين لا يعرفون بأسماء وأوصاف بل طوى الزمن من حديثهم ما طوى القبر من أجسادهم فظلوا مستترين محتجين ..

أول هؤلاء الأربعة ، محمد بن نوح وقد سيق مع أحمد الى لقاء المأمون وكان شيخا هرما !! ! قيده الحديد فى قدميه ويديه وامتنع عنه الشراب والطعام على ضعف فى البنية ومرض فى الشيخوخة فلقى الموت مكفنا بقيوده وحديده وبكى عليه الامام أحر بكاء !!!

وثانى الأربعة ... الفقيه الحجة أبو يعقوب البويطى وقد حمل من مصر فى قيده الى بغداد وهو يقول ... والله لأموتن فى حديدى هذا حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديثهم ولئن دخلت على الواثق لاصدقته القول وقد صدق ما عاهد الله عليه فشهر به أقدر تشهير اذ أركب بغلا فى عنقه غل وفى رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة فولاذية فيها قدر من الحديد زنته أربعون رطلا !! وهو يصيح انما خلق الله الخلق (بكن) فإذا كانت كن مخلوقه فكأن مخلوقا خلق مخلوقا !! !! ثم رمى به فى السجن فمات فيه ...

وثالث الأربعة المحدث الرحالة الورع نعيم بن حماد يحضر من مضر فى خلافة الواثق فيثبت على رأيه فى القرآن ويجلئ بالمنطق والحجة لانه كان معتزليا قبل أن يعشق الحديث فعرق طرق القياس

وبراهين الحجاج فلما ضاق به مناظروه حبسوه مصفدا في أغلاله فمات
في السجن المظلم وله من ايمانه مصباح منير ...

أما الرابع فأجدر بشجاعته الباسلة أن نقف لديه وقفة تقضي بها
حقوق رجولته الرائعة وايمانه العظيم ذلكم هو الفقيه المحدث الشهيد
أحمد بن نصر الخزاعي .. ذو الحسب الاصيل في قومه ، والكلمة
المسموعة في ذويه .. كان من طبقة الاساتذة بالقياس لاحمد بن
حنبل .. فهو تلميذ مالك بن أنس واستاذ يحيى بن معين .. ولقومه
رياسة في الدولة فهم أرباب المناصب العالية والجاه العريق ، وحين
قامت محنة القرآن لم يجبن عن اظهار رأيه بل أيد الامام أحمد تأييدا
رائعا بالعقل والنقل وجمع حوله الناس ليرشدهم الى ما يعتقد !! ولكن
الدولة لم تحاربه بادىء الامر ، ويخيل الى ان ابن أبي دؤاد كان
يعجب به لسبب ما فتركه كما يريد بدليل أنه تشفع لدى الواثق فيه
حين مصرعه فلم يلتفت الى شفاعته .. ولقى مصيره المحتوم في ثبات
غريب ..

أعلن أحمد بن نصر رأيه في القرآن ، وجاهر بخصام ذوى
السيطرة من أرباب الطغيان ولو وقف به الامر عند ذلك ماتعرض له
انسان ، ولكنه كان رجل بطولة وحمية - على تقدم سنه التى جاوزت
التسعين - فرأى أن السكوت على الجور مهانة ومذلة وجمع حوله
الانصار في ثورة سياسية تمصف بالبغاة من المتحكمين وأخذ للامر
عدته في حزم ويقين .. ولكن مؤامراته الجريئة قد ذاع أمرها لاسباب
تخرج عن ارادته وهمته فدهمه الجند وسيق الى المحاكمة ، ومن العجيب
أن الواثق لم يتعرض لسؤاله عن الثورة بل سأله عن رأيه في القرآن
ورؤية الله فأجاب بما يعتقد غير هباب ولا وجل .. واستشاط الخليفة
غضبا فنهض الى سيفه ليقدرقبته فلم يستطع فساعدته جلادته ذوابطش
الشديد فأجهز على الشهيد في لحظات ... ثم حملت الرأس فنصبت
على جزع مائل بالجانب الشرقى ببغداد وظلت هكذا ست سنوات ..
حتى سمح بانزالها المتوكل

ولك أن تقرر أثر هذا المصراع الاليم في نفوس العامة مما حاكوه من الاساطير حول هذا البطل العظيم فقد تحدث أناس انهم سمعوا الرأس المصلوب يقرأ في حشد الليل قول الله .. « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » ...

وانهم كانوا يذهبون الى قبره بعد دفنه فيسمعون الرأس يقرأ القرآن .. وأن لحده قد حفر بعد أمد طويل فوجد الرأس سليما لم يدركه أقل فناء وتلك الاساطير الجذابة لن تتسح إلا حول شخصية لها قداستها في النفوس وقد كان ابن حنبل اذا ذكر حديث ابن نصر يترحم عليه ويقول في أسف : رحمه الله ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه .

فمن مبلغ عشاق البطولة أن شيخا فاهو المائة قد قام بثورة على الظالمين ثم شاعت ظروف ثورته أن يقدم للمحاكمة فيصر على موقفه دون تردد ، انسحاب وكان دم الشاب قد تدفق في عروقه اذ ذاك فصال غير وجل أو هياب .. ذلك حدث جليل ..

هذا هو حديث الاربعة المذكورين .. وبقى حديث جندي مجهول عرفت بلدته ونسى اسمه ، مع انه كان بمنطقه المنجم وحجته البالغة وشجاعته النافذة سببا وطيدا في جسم الشر والتعجل باقتناء المحنة .. ورجل حسم بهمة العالية هذا الخطر الرهيب جدير أن يذكر ويعلم !! ولكنه التاريخ يعي من يريد ! فما حديث هذا البطل المعجيب ..

لقد نقل الى الواثق وشيعته أن شيخا من « اذنه » يجاهر بما لا يرضون فصدر أمر باحضاره ومحاكمته !! وجاء الرجل وفي نيته أن يستشهد في سبيل الله ، فليس يبالي بأحد أمامه وعليه أن يجهر بالحق دون تلجلج واضطراب ، واتسان هذه عزيمته لا بد أن يترك صداد المجلجل ، ويلوح لى أن الواثق كان قد استمع الى الكثير من جراته ومجاهرته بكل ما يعتقد فأحب أن يشهد الامتحان بنفسه ليرى أى بطل يصارع وقد حضر رموس الاعتزال ودار النقاش على هذا النحو ..

أحمد بن أبي دؤاد — ما تقول في القرآن ؟

الجندى المجهول ... دغنى أسألك قبل أن تسألنى ، هل كنتم
محمد شيئاً من الرسالة ؟

ابن أبي دؤاد ... لا لهم يكتنم شيئاً ؟

— أتخفظ قول الله تعالى .. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت
عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ..

— نعم أحفظ ذلك دون نزاع ..

— هل دعا الرسول الى القول بخلق القرآن مع انه لم يكتنم

شيئاً ??

— لم يدع الى ذلك ..

فيلتفت الرجل الى الواثق ويقول في لهجة حازمة .. سجل ذلك
عليه ثم يسأل أحمد .

— هل علم الرسول شيئاً عما تقول من خلق القرآن ??

— أحمد في تردد نعم ..

— هل دعا الناس الى الاقرار بهذا القول ??

— لم يدع الى ذلك ...

— هل علم ذلك الصحابة والخلفاء الراشدون ??

— لم يعلموه ...

— واذا لم يعلموه فكيف نعلمه .. ثم يلتفت الى الواثق ويقول

في لهجة حازمة ...

— سجل ذلك عليه : ويتدارك أحمد فيقول

— انهم علموه ولكن لم يذيعوه ...

— وإذا لم يذيموه فكيف نذيمه نحن ونعذب عليه الناس ??
ثم يومئ الى الواثق ويقول : سجل ذلك عليه وينظر الواثق فيجد
أحمد مضطربا فيأمر باطلاق الرجل تفرقه !! ويعلن انتهاء المحاكمة ثم
يخلو الى نفسه فيقول ... شيء لم يدع اليه رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولا الخلفاء من بعده فكيف نعذب عليه الناس !! وكان
حجابا كثيفا قد ارتفع عن عينيه فجأة فأمر بالتراجع عما يسير فيه
القوم ، وأخذ يبدى لابن أبى دؤاد وشيعته كثيرا من النقيض وازورار
هذا الموقف الجريء لجندى مجهول ، قد تواترت الكتب التاريخية
على تسجيله ورصده ، بل ان الخليفة المهدى بالله كان من شهوده
وحدث به في مجلسه آسفا ألا يكون قد عرف اسم صاحبه وأثره
العميق في نفس الواثق !! ونحن لانستطيع تكذيب حادث طبيعي
أجمع الرواة على تدوينه ، دون أن يلوح فيه شيء من الشذوذ
والاستغراب !! اذ ان رد الروايات التاريخية لا يكون الا لدليل يقوم
على دحضها !! ونحن لانمنع أن يكون هذا المجلس حقيقة واقعة !!!
فهو بنقاشه ورده أقرب ما يكون الى الصدق والاقناع ، ولكننا
نسأل عن هذا البطل من يكون فلانجد المجيب ..

وقد يقول قائل .. ان رجلا يترك هذا الاثر لابد أن يدون اسمه
ويعلو صيته فلا يصبح بين النكرات المجهولين ونحن نقول ان ذلك
يكون طبيعيا لو صمم الواثق على مجاهرة ابى دؤاد بالقطيعة مباشرة
دون أن يترث أو ينتظر ، فيعلو صوت منافسه ويرن صدهاء ولكن الامر لم
يكن كذلك فقد تردد الواثق ووقع في حيرة مدهشة ثم أخذ ينقبض
شيئا فشيئا عن حاشيته مكتفيا باطلاق الرجل دون أن يعلم من يكون!
ان الحياة حظوظ وأقسام !! فهي كل زمن ترى النباهة لقوم والخبول
عند آخرين !! ونحن لانتاع اذا وجدنا الممتاز المرموق — كما يحدث
كثيرا — قد أخذ مكانه بجده ونضاله كأحمد بن حنبل وغيره من أبطال

التاريخ ذوى النباهة والتبجيل ولكننا فلتاع كثيرا حين نرى الكفاء
الاصيل يتزحزح عن مكانه مطسورا فى ظلمات الجحود كما يحدث
كثيرا دون أن يذال ما يستحق من تنويه .. هنا تكون اللوعة المؤسية
والاسف الحزين وكم فى الكون من جنود مجهولين ذهب أسمائهم
وبقيت آثارهم فكائنات عطرا قائما يذكر بالزهور الناضرة والروض
الاريض ...

— فلنقدس جميعا — بهذه المناسبة الطارئة — ذكرى الجنود
المجهولين

جبهة عالية

مات خليفة وجاء خليفة - ذهب الواثق وأتى المتوكل .. وقد
بادر برفع المحنة واقلب الامر بين عشيه وضحاها من النقيض الى
النقيض ، فبعد أن كان رءوس المعتزلة كل شيء في الدولة أصبحوا
مكان الاضطهاد والعسف وكما تدين تدان ، كانت قلوب العامة في
الامة الاسلامية تغلي بالحقد والغضب والكراهية ... للقائمين بالنتنة،
ففى كل صدر آهة حبيسة ، وفى كل عين دمعة على هؤلاء الشهداء
الذين يقتلون في غير جرم !! فحين كشف المتوكل المحنة هتفت بذكره
القلوب واجتمع اليه الملا وأصبح من رضا الرعة في حرز مكين !!
حتى قال بعض الفقهاء ... الخلفاء ثلاثة أبوبكر قاتل أهل الردة حتى
استجابوا له ، وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بنى امية ، والمتوكل محا
البدع وظهر السنة

ولكن من هو المتوكل الذى يقرن بأبى بكر الصديق ؟ انك
لتدهش أيما دهش حين - تعلم أنه كان - هو الآخر طاغية سفاكا
ظالما وكان متلافا مبذرا ينفق أموال المسلمين في ملذاته وشهواته كما
بشاء ويضطهد الاحرار من المفكرين اشنع اضطهاد ويهمل أهل الذمة
معاملة الخدم والعبيد ، حتى عرف لدى المؤرخين بنيرون العرب ..
ومع هذا كله فقد أحبته العامة وقرته بأبى بكر على لسان قاضى البصرة
الفقيه ابراهيم محمد بن التميمي (١) وذلك لسبب واحد .. انه كشف
المحنة .. وأبطل الكلام في خلق القرآن وحسبه ذاك ...

واقراً ما ذكره ياقوت في معجمه لنقف على جانب من تبذيره
وتهوره .. قال ... ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الابنية

(١) المقرئى فى المقفى

الجلية مثل ما بناه المتوكل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم والقصر المختار أنفق عليه خمسة آلاف ألف درهم والقصر الوحيد أنفق عليه ألف درهم والقصر الفريد أنفق عليه عشرة آلاف درهم والقصر المليح أنفق عليه خمسة آلاف ألف درهم والقصر المعروف المتوكلية وهو الذي يقال له «المأخوذة» أنفق عليه خمسين ألف درهم وقصر البهو أنفق عليه خمسة وعشرين ألف ألف درهم وقصر اللؤلؤ أنفق عليه خمسة آلاف ألف درهم فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربع وتسعون ألف درهم !!

ويقول الاستاذ حسن خليفة في كتاب الدولة العباسية (١) وقد كان قاسى القلب ظالماً حتى أطلق عليه المؤرخون اسم «نيرون المسلمين» وفي عهده ابتدأ اضطهاد الدولة العباسية إذ ترك أمور الدولة لقواده وانغمس في اللذات والشراب وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين وساءت الأحوال وأعاد إلى الفقهاء وأهل السنة نفوذهم وطرد أهل الاعتزال من الوظائف العامة واضطهد الطوائف الأخرى وألزمهم أن يلبسوا لباساً خاصاً بهم ، ومن كان عندهم من العبيد ، وحرم عليهم ركوب الخيل وأمر أن يضعوا على وجهات منازلهم صورة إبليس وألا ترتفع قبورهم عن سطح الأرض هذا وقد هدم قبر الحسين بكر بلاء ، وهدم مأخوله من الدور ومنع الناس من زيارته وأصبح صحراء مفقرة ...

قال الحصرى في زهر الآداب ... كان المتوكل أول من أظهر من خلفاء بنى العباس الانهماك على شهوته وكان أصحابه يستخفون بحضرته وكان يهاتر الجلساء ويفاخر الرؤساء وهو مع ذلك محبب من قلوب الناس إذ أمات ما أحياء الوائق من اظهار الاعتزال والجدال . « هذا هو المتوكل . . نسي له الناس كل جريرة وقرنه الفقهاء بأبى بكر واجتمعت قلوب العامة حوله ، كل ذلك لانه رفع المحنة واعاد الى

الفقهاء وأهل السنة تهوؤهم وطرد أهل الاعتزال من مناصبهم الرفيعة،
فما موقف الامام احمد منه وما موقفه من الامام احمد بعد ذلك ..

لو كان أحمد كسائر الناس ممن يحملون معاني الحرص والرغبة
والانتقام .. لسارع اليه وقد دعاه ، وهش لعطائه وقد غمره ، ولكن
أحمد ذا الجبهة العالية لا يذل لغير الله ، ولا يحب انسانا لما رب شخصي
أو دافع انتقامي ، لقد نظر الى المتوكل من وجهته الاسلامية فوجده
قد أبطل المحنة من ناحية ولكنه عكف على الفسوق والبطش من ناحية
ثانية ، ورجل هذا شأنه لا يليق به أن يقبل عطيته أو يسعى الى لقاءه ..
لان الامر في ذلك أمر الاسلام لا أحمد ، فمهما تودد الى الامام وأغرق
ذويه وأقرباءه بالمال والهبات فهو في رأيه حائد عن تعاليم الاسلام في
أكثر أموره !! واذن فالنجاة النجاة ...

يا الله ، لهذه الروح الشماء تلك التي ترتفع عن رغبات الحياة
وترتقى الى أفق العزة والكمال !! ما غناء الخليفة وما عطاياه ؟! ان كان
ملوث الصحيفة بالاوزار ?? ولماذا نود انسانا لانه رفع عنا المحنة وقد
سلطها على قوم آخرين ! لسواء لدى الامام المثالي أن ينزل به العقاب
أو ينزل بسواه فاما ان يكشف الظلم مرة واحدة واما ان تظل القطيعة
مدى الايام .. تلك طريقة المثاليين من الهداة ، وهذا خلق العاملين من
ورثة الانبياء ...

كان احمد يمثل في ابائه موقف العيوف الغيور الذي لا يسمح
لنفسه ان يزور ظلما أو أن يترضاه .. وكان موقف المتوكل منه على
النقيض فقد اندفع الى مرضاة الامام ، بشتى الوسائل واحتال لذلك
أبرع الحيل ، وكان يشعر في أعماقه بفرحة سارة حين تبلغه كلمة تحمل
ارتياح الامام وقبوله وكأنه غنم بذلك دولة كبيرة تضاف الى دولته
ذات العرض والطول فأى سلطان أذل المتوكل لأحمد ؟ وأية قوة دافقة
جذبتة الى هذا الاتجاه ؟ ...

لقد أحس ندماء المتوكل باندفاعه نحو الامام ، وظنوا أن احمد
سيسارع الى القصر في ابتهاج ، وسيكون صاحب الكلمة الاولى ،

والرأى النافذ فتضيع مكالاتهم بأزائه ، فلا بد من الدسيسة المحكمة ليتزحزح بها مكان هذا المنافس العنيد ، ومن ثم فقد اتجهوا الى المتوكل يعلنون اليه ان ابن حنبل يحتفظ في بيته بأحد العلويين من خصوم المتوكل ولم يطق الخليفة صبرا على ماسمع فأمر بتفتيش بيت أحمد وأعد فريقا من النسوة مع الرجال ليقمن بتفتيش الاماكن الخاصة وجاءت النتيجة بما يرىء ساحة الامام ...

فتأكدت مكالاته لدى المتوكل وصاح في أتباعه لو بعث المعتصم واعلن لى شيئا فى احمد ماصدقته وكان ذلك بمثابة انذار قوى تضعضع امامه المفرضون وجلس الامام فى منزله ممسيا فجاءه رسول الخليفة يحمل جائزة مالية كبيرة - قدرها عشرة آلاف درهم وتوقع أن يرى البهجة تغمر وجه الرجل والابتسام يشع من ثناياه ولكنه رأى غير ماتوقع فقد أطرق (الامام) غلبسا ؟ وقال فى نفسه اذا رفضت الجائزة فسيكون ذلك منفذا للدس والوفية لدى الوصولين واذا قبلتها فسادنس يدي سمال مغضوب لأستحقته ولا أرانى اهلا لاستغلاله ...

ثم هداه تفكيره أن يقبل الهدية فاذا انصرف رسول الخليفة فرقاها على الفقراء والمساكين من ذوى الحاجة والحرمان ، وكان ذلك حلا موفقا بادر بتنفيذه وأراح ضميره من الوخز والتأنيب ...

ظن الامام أن المسألة قد وقفت عند هذا الحد ، ولكن رسول الخليفة يحضر لدعوته من بغداد ، الى سر من رأى ليرى الخليفة ويحدث الناس بالقرب منه وكان خبرا صاعقا تفتت له نياط أحمد فهو يعلم أن القرب من الظلمة ابتلاء ومحنة ، وقد ابتلى بالعذاب المهين من المأمون والمعتصم وبالاضطهاد المرهق من الواثق وحل الآن ابتلاء جديد بالنعمة والعطاء من المتوكل .. وهو على نفس الامام أشق وأوجع لان النفس البشرية تتوق الى لذات العيش فهي عون على صاحبها لاله ...

وأخشى ما يحذره الرجل أن تميل نفسه الى شئ من زخرف الحياة

فتكون الكارثة الدهياء هذا هم الرجل وشجاء ... ولعله في باطن أمره يرى أن المتوكل يتخذ من ترضيته وسيلة الى استقرار ملكه وتثبيت خلافته فيكون بذلك دغامة قوية لقاهر باطش لا يلتزم قواعد التشريع وتلك مذلة خطيرة يحذر أحمد ان يهوى اليها في أيامه الاخيرة وكان يقول لجلسائه لقد تمنيت الموت في محنة المعتصم بالنقمة وهأنذا أتمناه في محنة المتوكل بالنعمة ، فكلتاها داهية نكراء !! مهما يكن من شيء فقد حاول أحمد أن يتخلص من دعوة الخليفة ! ولكن على ابن الجهم صاح به : الخلفاء لا يصبرون على ذلك فالله الله في نفسك .. ??

وكان لابد من المسير

وكان ميعاد اللقاء فأعد له القصر حلة خاصة يرتديها في حضرة أمير المؤمنين ولكنه صمم على رفضها تصميما تاما واكبر الظن أنه شاهد بها خيوطا ذهبية لا يستحل لبسها ، وقد خلع عليه الخليفة خلفه ثمينة ذات قيمة كبيرة فلما عاد الى منزله باعها وفرق ثمنها على الفقراء من أولاد المهاجرين والانصار مستغفرا عما يكون قد أسلف من الذنب .. وقد بلغ ذلك المتوكل كما بلغه ما قام به من تعريق المال فسكت متأثرا ولكن على بن الجهم يهتف به .. « أحمد لا يأكل في اليوم غير رغيف جاف فماذا يصنع بالمال يا مولاي .. واذا ذاك صفا خاطر المتوكل وطالب نفسا عن صبيح أحمد ثم أمر لاولاده بأربعة آلاف درهم في كل شهر ، دون أن يعلم الامام فيرتاع ..

أترى المتوكل قد وقف عند هذا الحد ؟ انه أمر بشراء دار لاحمد فاستعظم وتأبى وكتب رقعة الى المتوكل يستعفى بها من هذا البلاء ثم وجد نفسه أمام موائد فاخرة تعد الى اسرته وأتباعه كل يوم فبكى واستعبر وأصر. على منعها فقبل الخليفة وجعل يقدم لنجله مبلغ ثلاثة آلاف درهم شهريا دون علمه لينفق على طعام العائلة — بمنأى عن عين الامام ، أما أحمد فقد ألزم الصوم وجعل يواصل ويفطر كل ثلاثة أيام على ثمن سويق وبعض الماء ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة على رغيف

وليلة لايفطر حتى ضعفت قوته وجاءه الرسول يطلب أن يراه الخليفة
مرة ثانية فاستعفى وانك لتلمس شعوره النفسى مما ننقله اليك فى هذه
الصدد ، ففيه أبلغ عظة للاعتبار ...

قال صالح بن أحمد .. وأمر المتوكل أن تشتري لنا دار فقال
بإصالح قلت ليك ..

قال .. لئن أقررت لهم بشراء دار لتكونن القطيعة بينى وبينكم
انما يريدون أن يصيروا هذا البلد لى مأوى ومسكنا فلم نزل ندفع
شراء الدار حتى اندفع (١) ...

وجعلت رسل المتوكل تأتية فيسألونه عن خبره ويصيرون اليه
فيقولون هو ضعيف - وفى خلال ذلك يقولون ... ياأبا عبد الله لا بد
من أن يراك وجاءه يعقوب فقال ..

ياأبا عبد الله أمير المؤمنين مشتاق إليك ويقول .. انظر يوما
تصير فيه ، أى يوم هو حتى أعرفه فقال ذلك اليكم فقال يوم الاربعاء
يوم خال وخرج يعقوب ... فلما كان من الغد جاء فقال .. البشرى
ياأبا عبد الله أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول .. لقد أعفيتك عن
لبس السواد والركوب الى ولاية العهد والى الدار فان شئت فالبس
القطن وان شئت فالبس الصوف ، فجعل بحمد الله على ذلك ..

وكان يختم القرآن من جمعة الى جمعة واذا ختم دعا فيدعو
وتؤمن ثم قال انما يريدون أن أحدث ، ويكون هذا البلد حبسنى
وانما كان سبب الذين أقاموا بهذا البلد أنهم أعطوا فقبلوا وأمروا
فحدثوا وجعل أبى يقول .. والله لقد تمنيت الموت فى الامر الذى كان
وانى لأتمنى الموت فى هذا وذلك ان هذا فتنه الدنيا .. وذلك كان
فتنة الدين ثم جعل يضم أصابع يده ويقول .. لو كانت تمسى فى بدى
لأرسلتها ثم يفتح أصابعه !! وكان المتوكل يوجه فى كل وقت يسأله
عن حاله وكان فى خلال ذلك يأمر لنا بالمال ويقول يوصل إليهم ولا

يعلم شيخهم فيغتم .. ما تريد منهم ؟ وقد قالوا للمتوكل .. انه لا يأكل من طعامك ولا يجلس على فراشك ويحرم الذي تشرب .. فقال لهم لو نشر المتصم وقال فيه شيئا لم أقبل منه ؟ ..

فماذا يرى القارىء في ذلك ...

أمير المؤمنين يطلب لقاءه فيصر على الامتناع وقد كان فقهاء السلف يقابلون الخلفاء ولايتخرجون ولكن أحمد ذو ضمير حاسن قلق فهو يرى في لقاء الطغاة وزرا بالغا وحرجا دوته كل حرج ، وأمير المؤمنين يتنازل عن لقاءه ثم يطلب منه أن يقيم في بلده - فيأبى كل الأباء ويرى أن قرب المسكن مدعاة للزيارة والاختلاط وقد يتخذ وسيلة لاقتناع الرعية فيعرفون أن امام أهل السنة يؤيد الرجل في نزواته وأهوائه ...

وتلك شنيعة لا يطيقها أحد بجان !! ولو أنه قابل الخليفة فوعظه كما فعل من تقدمه من السلف ، ولو أنه جاوره وجهر بكلمة الحق كما تعود أن يجهر لما كان في ذلك حرج في تقواه ولكنه الاحساس الرهيف والضمير اللوام ...

على أن النزاع قد اشتجر بين أحمد وأسرته فقد وجدهم غارقين في النعمة ..

وعرف أن ذلك بسببه ، فقاطع ودابر وأمر ابنه وعمه أن يبرحوا داره ، حتى انه مرض ذات ليلة فاحتاج الى أن يأكل باستشارة الطبيب قرعة مشوية !! فقدمت اليه وقبل أن يأكل علم انها شويت في تنور ولده صالح فأبى وامتنع !!!! وقال : يأكل من مال المتوكل ثم آكل طعاما يشوى لديه !! ؟

ذلك لن يكون ؟ ويبلغ هذا كله الى الخليفة فيقبله دون غضب ، وأسائل نفسي ؟

كيف خنع المتوكل هذا الخنوع !!! ؟ وما عهدناه في استعلائه ورياسته ذا تهاون وانغضاء يخيل الى أنه اعتقد في أعماق نفسه أن

الامام موصول السبب بالسوء وان غضبه على المأمون والمعتصم والواثق قد عجل بنهايتهم في سنوات فحاول جهده أن يسترضيه !!!! وقد تحمل ترفعه واباءه بصدر رحب وقلب سليم !!!! ولن نقول ان غضب أحمد على هؤلاء قد عجل بنهايتهم ، فكل شيء يجري بمقدار ولكننا نعرف مدى تأثير العواطف بالمظنوفات !! ونرى ان التفاؤل كالتشاؤم كثيرا ما يحدث اثره الحاسم في النفس فيقلب اتجاهها ويبدل منهجها وهذا ما حصل للمتوكل فقد غير سلوكه المتعاطف مع أحمد وحده ، لظن قام بخاطره ومكث يسترضيه ويرتجيه حتى أدركته الوفاة !!!!

على ان خلال الامام وحدها كانت تعجب وتروع ومما لاشك فيه أن المتوكل قد عرف ثباته العجيب في محنته ، وسمع عن بطولته وتصميمه مازاده هيبة وارتقا في عينيه ، وقد لمس بنفسه تساميه الرفيع لما يدعش ويروع فمع رفضه لكل عطاء يوجهه !!!! ومع تمسكه بتشفه الزاهد وانطوائه ، وقف من ابن أبي دؤاد يدعو الى الدهشة والاستغراب !!!! اذ ان ابي دؤاد خصمه الالد وقد حرص المعتصم على قتله !!!! وقال ان دمه في رقبتة ، كما حاول جاهدا أن يحمل الواثق على تعذيبه فأخفق !!!! فلما نكبه المتوكل وسجنه بعث الى ابن حنبل ليبدى رأيه في غريمه الالد وانتظر الناس أن يفتي امام السنة باعدامه كما أعدم مئات الارواح ولكن الامام يترفع ويتسامى فلا يقول شيئا يضر غريمه ويسأله الناس في ذلك فيقول لقد جعلت كل من آذاني في حل مني واحتسبت أجرى الله وحده ... فكيف اتجه الى الانتقام !! !! !! ؟

ونحن نرى من العسر الشديد أن ينزل الناس عن غضبهم المكين !! !! ولكن أحمد غير الناس وقد عرف أنه اودى في الله فلم يشأ أن يكدر مشوبته بشيء ولعلك لو بحثت في خوارق العفو ومعجزات الصفيح ما وجدت نظيرا لذلك غير الشاذ النادر !! !! وقد كان أحمد بمثابة الخارقة شاذاً بين قومه وعهده فكيف

يضطرد مع الناس في قياس؟! • لقد كان أحمد في سلوكه مع المتوكل
يجابه محنة خطيرة لاتقل عن محنته الاولى مع المعتصم ، اذ أنه في
محنته الثانية يواجه بالنعيم والترف ، والنفس الانسانية أماراة
بالسوء مدفوعة الى المغريات فاذا انتصر عليها صاحبها انتصارا ياهرا
كما فعل أحمد فقد قهر كل جانب بشرى ، وتجرد من كل غريزة
أرضية ، ودون ذلك صراع رهيب وعراك نائر لايقف أمامه غير
الصفوة من الاخيار •

أما المحنة الاولى فقد وقر في نفس الامام انه سيجوز فيها أجر
الشهادة لدى الله ، فكان ذلك سببا قويا في تمسكه واستعصامه !!!!
وتحمل التعذيب المرهق بنفس راضية وقلب مطمئن فكان بطلا
في العذاب تحت السياط كما صار بطلا مثاليا يترفع عن الميول
والاهواء

أجل لقد نسي الرجل أرضيته فخلق في السماء !!!! وكذلك
الصفوة من العظماء !!

استفهام

هذه آراء أحمد في طائفة من المسائل الكلامية التي احترم النقاش حولها في عصره واضطر على كره منه أن يقول كلمته فيها ولم نشأ أن نسردها سردا علميا يفضي الى الكد والملال ولكننا تخيلنا هذا المجلس لنبرز فيه آراء الامام كما بينها للناس متيحين للقارىء ما أمكننا من متعة الحوار وبسهولة العرض ...

خرج الامام الى مصلاه قبيل الفجر وأدى تحية المسجد في خشوع ثم التفت عن يمينه فوجد ثلاثة من تلاميذه هم رلده عبدالله وأبو بكر الأثرم وابراهيم الحري فأقبلوا عليه مسلمين وجلسوا يستمعون ما يتلى من القرآن الكريم ...

وكان من العادة المتبعة اذ ذاك أن يستمع المسلمون لقرآن الفجر من تال حسن الصوت جميل الاداء ، ولليل سكون يبعث الجلال والخشوع ولنسيم السحر اذ يمضي في رجة المسجد وفنائ لمسات منعشة توقظ القلوب وتحيي المشاعر !! يسود الصمت الرائع اذ تخشع الاصوات فلا تسمع غير القرآن !! !! وكم للنفس اذ ذاك من سبحات علوية فهي من نور القرآن في أشعة تتماوج !! فالمعاني تتكشف وتتضح وكأنها لم تكن معروفة قبل الآن والالفاظ تشدو متناغمة في موسيقية رائعة تميل اليها الافئدة وتشرح بها الصدور !! حتى اذا سمع صوت المؤذن نهض الجميع للصلاة فرحين ..

وقام الامام الى محرابه فكبر في عزم وتصميم وكبر خلفه المصلون خاشعين مبتهلين . ورف على المسجد جلال سحري كاد ينقل الناس من الارض الى السماء حتى انقضت الصلاة في طمأنينة ووقار ونهض كل

الى شأنه ولم يبق بالمسجد الفسيح غير أحمد وتلاميذه الثلاثة من حوله ، وفي الاركان المتباعدة أناس يأتون فيصلون ثم يرحلون وهم الامام أن يسمع من ولده عبد الله بعض ما حفظه الليلة الماضية من الحديث ولكن أبا بكر الاثرم يشير في أدب كمن يطلب الكلام فيهتف به أحمد ، قل ماتشاء :

أبو بكر ... أسمعت مقرأء الفجر يتلو كلام الله ؟

أحمد ... نعم وقد خلق بالارواح وأمتع النفوس ، ..

أبو بكر ... سمعت منه آية جلية لا يزال عقلى متأثرا بها حتى

الآن .

أحمد ... آية آية تريد فكل كلام الله مؤثر جذاب .. ؟

أبو بكر ... وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة

أحمد ... وماذا ترى في هذا القول الصريح .. في كتاب لا يأتيه

الباطل ؟

أبو بكر ... (في تردد) ان المعتزلة ينكرون رؤية الله ..

عبد الله يتدارك .. والذي يكره جدال المعتزلة ؛ فقد عن ذاك

أبو بكر ... ليس هنا جدالا ولكنه استفهام

ابراهيم ... فاذا لم يرد على استفهامك فلماذا تخرج نفسك ؟

الامام أحمد ... أبو بكر مستفهم ينشد الحق وليس مجادلا يلج

في الباطل ومناقضه فأسأله ؛ وما دليل أهل الاعتزال ؟

أبو بكر ... يتمسكون بقول الله لا تدركه الابصار وهو يدرك

الابصار ؛ فهنا نص بنص .

أحمد ... النص دائما يفسره الحديث الشريف وقد جاء بثبوت

رؤية الله .

أبو بكر ... وماذا تقول في تفسير هذه الآية ؟

أحمد .. لا تدركه الابصار فى الحياة الدنيا أما فى الآخرة فوجوده يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة وصدق الله

ابراهيم ... لديهم دليل عقلى آخر فهم يقولون ان الرؤية تستلزم مكانا وجسما وتعالى الله عن ذلك .

أحمد ... هم يقيسون الله بالانسان وليس كمثلته شئ . فالله يرى دون مكان أو جسم !!!! ولا نعلم كيف يكون ذاك ...

أبو بكر - لقد نفى المعتزلة صفات المعانى لهذه العلة فهم يتوهمون أن الصفة تقتضى موصوفا !! فيكون الله كالعباد صفة وموصوفا .

أحمد - ليس كمثلته شئ بنص القرآن !!! فصفا المعانى ثابتة لله ولكنها لا تقتضى أى شئ فهو موصوف بذلك على نحو لا نعلمه على الإطلاق ...

ابراهيم - اذن كل ما فى الكتاب والسنة ثابت لله .

أحمد - ولكننا لانعلم كيفية ووصفا ولاهيس بشرا بآله ..

أبو بكر - لى سؤال آخر ..

عبد الله - كفى فقد أضجرت ..

أحمد - دعه يا عبد الله فهو مستفهم لا مجادل وفى صدرى اشراح للإجابة الآن ..

ابراهيم - ذلك توفيق من عند الله ..

أبو بكر - ماحكم من يرتكب الكبيرة من المسلمين .. ؟

أحمد - أنعرف نحن صنع الله ؟ أمره الى ربه ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه ..

أبو بكر - المعتزلة يقولون : مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر فهو فى منزله بين المنزلتين ..

أحمد (بصمت) ..

ابراهيم - والخوارج يقولون : أكثر من ذلك فهم يزعمون أنه كافر عن يقين ..

أحمد - مادليلهم من السنة والكتاب .. ؟

أبو بكر - أدلة غير صريحة ولكنها تأويل وتعليل ..

أحمد - لأحب أن أسمع لفظاً في كتاب الله .. دعونا مما يقولون

أبو بكر - لأبى حنيفة رأى يتصل بهذا الموضوع .

أحمد - أحب أن أسمع كلام أبى حنيفة ودليله ..

عبد الله - هو من أهل الرأي يا أبتاه ..

أحمد - الرأي شيء ؟ ولجاجة المعتزلة شيء آخر ؟ صاحب الرأي

فقيه يتحدث في الفروع فيخطئ وبصيب ، والمعتزلى يتكلم عن الله

ويصفه ويشتمل بفلسفته ، فأين أبو حنيفة من هؤلاء ؟ ..

أبو بكر - انه يقول ان الايمان لايزيد ولاينقص ..

ابراهيم - ومادخل ذلك في مرتكب الكبيرة ؟

أبو بكر - الأمر واضح فاذا كان الايمان لايزيد ولا ينقص كما يرى

أبو حنيفة فمرتكب الكبيرة لاينقص ايمانه ..

أحمد - كأن أبا حنيفة لايعد العمل جزءاً من الايمان ؟

أبو بكر - هو ذاك ..

أحمد (محتداً) أرى أن الايمان قول وعمل ..

أبو بكر - اذن هو ينقص ويزيد ؟ ..

أحمد - نعم يزيد بالطاعة وينقص بالمعاصى ورسول الله يقول :

لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق

وهو مؤمن ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن ..

أبو بكر - هناك المرجئة أيضا ..

أحمد - مايقولون ؟

أبو بكر - لقد قالوا أن الإيمان لا تضر معه معصية كما أن الكفر لا تنفع معه طاعة ..

أحمد (في صحيحة) لاحول ولا قوة الا بالله لقد زينوا للناس فعل الشهوات من المعاصي والموبقات ..

ابراهيم - وكيف ذاك ؟

أحمد (منفلا) اذا كان الإيمان لا تضر معه معصية فيفعل المسلمون المعاصي كما يشاءون وكلهم مؤمنون . نعوذ بالله نعوذ بالله ..

أبو بكر - قولهم الإيمان لا تضر معه معصية يمت الى قول أبي حنيفة ان الإيمان لا يزيد ولا ينقص ..

أحمد (محتدا) - أبو حنيفة ليس من المرجئة وقد قيل عنه ذلك خطأ وفرية فالرجل براء ..

عبد الله - وماذا يقصد من عدم نقص الإيمان ؟ ..

أحمد - أظنه يقصد أن الإيمان موضعه القلب فهو اليقين الجازم . وصاحب المعصية يفعلها وهو يعلم أنها معصية فيقنه انقلبي صحيح ؟ فأين هذا من المرجئين ؟ ..

أبو بكر - انت تدافع عن أبي حنيفة .. وقد نقل عنك غير ذاك ..
أحمد - لم أقل شيئا في اعتقاد أبي حنيفة ولكني لا أغلو غلوه ندى الافتاء الفقهي في الرأي والقياس .. وكل فقيه وما يختار ، وأبو حنيفة في سائل الكلام فوق الشبهات ..

ابراهيم - أبو حنيفة متفق معك في شيء هام .

أحمد - يسرني أن أعلم موضع الاتفاق ..

ابراهيم - انه يكره الجدل في مسائل القدر والنقص ..

أحمد - وماذا قال ؟ ..

ابراهيم - انه يقول .. هذه مسألة قد استصعبت على الناس فأني

يطيقونها ؟ هذه مسألة مقفلة قد ضل مفتاحها واذا واجد فقد علم
ما فيها ولا يفتح الا بخبر يأتي من عند الله ..

أحمد - صدق أبو حنيفة .. كل ما يتعلق بذات الله وصفاته مستصحب
على الناس فأنى يطيقونه ؟ ، أما نهيتكم عن الخوض في الكلام .. ؟

أبو بكر - متردداً ، - وما رأيك في مسألة القدر ؟

أحمد - لا تطيلوا الخوض يا قوم كفى ما كان ..

أبو بكر - سؤال يسير ..

أحمد - قل مالدبك .. على ضيق .

أبو بكر - اذن أمتنع .

أحمد - قل على غير ضيق .

أبو بكر - القدرية يقولون : الانسان يعمل ما يعمل بقدرته
الخاصة لا بقدرة الله سبحانه وتعالى ، والله لا يريد المعاصي اذ لا يأمر
بها ، ولا يأمر سبحانه وتعالى بما لا يريد ..

أحمد - (متأسفاً) يا قوم أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة
المسلمين على أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الرضا
بقضاء الله والتسليم لامره والصبر تحت حكمه والاخذ بما أمر الله
به واخلاص العمل لله والبعد عما نهى عنه ، والايمان بالقدر خيره
وشره وترك المراء والجدل والخصومات في الدين (١) .

ابراهيم - هل للانسان قدرة خاصة ؟ ..

أحمد - (محتثا) القدرة لله وحده ؟ يا قوم دعوا اللجاج ..

أبو بكر - آخر سؤال : هل يقع في ملكه ما لا يريد ؟ ..

أحمد - يا قوم لا يقع في ملكه ما لا يريد تعالى الله تعالى الله ..

عبد الله - هل أصلى خلف القدرى الذى يقول بذلك . ؟

(١) ابن حنبل للاستاذ ابى زهرة نقلا عن المناقب ص ١٧٦

أحمد - لاتصل خلفه دعوا المتدعين لست متكلما أنا صاحب سنة
وكتاب ..

ابراهيم - (لصاحبه) لقد أضجرتنا الامام ..

أبو بكر - كان لابد أن يقول ..

أحمد - وقد قلت ما في كتاب الله وسنة الرسول ..

ابراهيم - أنت امام أهل السنة وحافظ الكتاب . .

أحمد - (منفعلا) يا قوم دعوا الاطراء دعوا الاطراء ثم يسجبه الى
المحراب ..

الكنز الثمين

أي كنز ثمين جمعه أحمد ؟ وكيف استطاع أن يضم فرائده ويجمع غواليه ؟ لقد عهدناه يسأل كل لآل ويطرق كل صيرف ويغوص كل مغاص .. حتى جمع تراثا لا ينفد ورجع بثروة ذات حظ ..

فما هذا الكنز الثمين ؟ انه مسند أحمد بلا جدال .

لقد انصرف الناشء الصغير الى حفظ القرآن فمصادفته صعوبة تذكر ؛ فكتاب الله مجموع في صحف معلومة وسوره وآياته لا يختلف عليها مختلف وما عليه الا أن يحفظ ويتأمل .. وذلك شيء يسير ..

ثم نازعته نفسه الى الحديث فماذا وجد ؟ ثروة قيمة تكاد تضيق فأحاديث في الكوفة لا يعرفها أهل بغداد وأحاديث بمكة لاتصل الى دمشق وأحاديث في دمشق لاتصل الى اليمن وفي كل قطر اسلامي محدثون ولكنهم اقليميون فكيف يقتنص هذه الاوابد الشوارد ؟ ، ومن له بمن يجمعه بكل هؤلاء ؟ .

لا بد من الرحلة في طلب الحديث .. وليبدأ بما سمع ببغداد ثم ليوجه همهته الى الكوفة فالبصرة فمكة فالمدينة فاليمن وليحرص على مقابلة أهل الأثر وليدون كل ماسمع وصح لديه ولينفق العمر الطويل في الفحص والاستيعاب دون سآمة أو ملال حتى يحيط خبرا بما جهل ؟ وحتى يقدم للناس مجموعة معلومة تضم أحاديث الرسول .. ولكن ..

أنم تكن هناك مدونات قبل أحمد ؟ كانت هناك مدونات ولكنها اقليمية فعالم المدينة قد دون أحاديث المدينة ، وعالم مصر قد دون أحاديث مصر ، أما ان تكون هناك مدونة جامعة قبل مسند أحمد فذلك مالا يجزم به ولعل أظهر هذه المدونات السابقة موطأ مالك رضى الله عنه .. وقد كان الغرض

عنه لدى امام أهل المدينة خدعة الفقه لا خدمة الحديث ليسهل استنباط
 الأحكام الفقهية والأدلة الشرعية فالموطأ مرتب ترتيبا فقهيا فهذا باب
 الطهارة وهذا باب الصلاة مثلا ؛ ولكن مسند أحمد لم يرتب هذا الترتيب
 بل جاء وفق الرواة فهو يقول مثلا : مسند عمر بن الخطاب ويروى جميع
 الأحاديث التي نقلت عنه فيذكر حديث فلان وفلان وفلان عن عمر ثم ينسب
 الى مسند علي فيروى جميع ما روى عنه وهكذا يرتب كتابه وفق الرواة فأتت
 تجد أحاديث الأحكام مبشرة فمن الجائز أن يتطلب قارىء أحكام الحج
 مثلا فيظل يقرأ الكتاب من - آلفه الى يائه - حتى يصل الى ما يريد .. ودون
 ذلك جهد طائل كبير - وتساؤلى كيف سلك أحمد هذا المسلك ؟ وأجيبك
 أن الرجل قد جعل همه شيئا واحدا هو أن يجمع أحاديث الرسول صلى الله
 عليه وسلم لم يدر بخلده أن يجعل مسنده سجلا واعيا للفقه والأحكام
 .. فرتب مسنده وفق الرواة ..

والحق أن جمع الحديث لذات الحديث كان مشغلة شاقة أرهقت أحمد
 وأخسته وقد رآها فريضة واجبة الأداء ؛ إذ أنه عاش في عصر كثرت فيه
 الأحاديث الموضوعة وذهب أبواب النحل من المفرضين الى اختراع أقوال
 منسوبة للرسول الأعظم تؤيد اعتقادهم وتساند أفكارهم .. وعج تيار من
 الموضوعات حتى كاد أن يلتهم النصحيحات فارتاع الامام لذلك وفزع وقدم
 كتابه ليقول للناس : هذا هو ماصح في رأيى عن رسول الله وكل مادونه
 مختلق موضوع .. ورجل وجهته فى جمعه هذه الوجهة لا يطلب منه أن
 يلتفت الى تبويب فقهي ، وقد هيأت الايام لهذا العمل المخلص من
 يفرسونه ويقرّبونه ويرقمونه ويعلقون عليه حتى ظهر أخيرا فى أجمل
 حلة مرقما مصححا والاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ..
 لقد قدم الرجل كتابه اماما للناس دون فيه جميع ماصح لديه من
 الأحاديث وقد أوضح طريقته فى الجمع اذ قال لابنه عبد الله (١) .

• قصدت فى المسند الحديث المشهور وترك الناس تحت ستره

تعالى ولو أردت أن أقصد ماصح عندي لم أرو من هذا المسند الا الشيء بعد الشيء ولذلك تعرف طريقتي في الحديث ؛ نلت أخاف ماضف اذا بم يكن في الباب مايدفعه ، ، .

ونحن امام ذلك نجد في المسند أحاديث ضعيفة وقدروها أحمد وهو يرجح ضعفها لأنه لم يجد مايعارضها من الأحاديث المسلمة انقويه او النصوص القرآنية ؛ فتركها لاحتمال ان تكون صحيحة ؛ أما اذا وجد من الأحاديث الصحيحة مايعارضها في حكم أو اتجاه فانه يرفضها رفضا لا هوادة فيه ولن يقول قائل بعد ذلك كيف يترك أحمد للناس كتابا في السنة يجعله اماما متبعا وهو يضم بين أحاديثه قدرا من النوع الضعيف ؛ لأننا نقول . . . ان رواية الحديث الضعيف موجودة في كل كتاب فلدى البخارى ومسلم وغيرهما بعض الأحاديث الضعيفة ولكنهم لم يجدوا مايعارضها من النصوص القوية فآثروا اثباتها لاحتمال صحتها . . . واذن فلم يكن أحمد في جمعه للمسند حاطب ليل ولكنه كان ينظر الى الحديث متنا واسنادا ثم يحكم عليه في ضوء ما علم من الكتاب والسنة فاذا وجد تعارضا في ذلك رفضه دون قبول أما اذا امتنع التعارض فلا بأس من ذكره على ضعفه ولن يضر القارىء في شيء ؛ اذ لا يخالف أصلا متبعا أو يعارض حديثا مسلما صحيحا أجمع عليه الرواة . . .

وقد ثبت أن الرجل حتى في مرضه الأخير كان يستدعى أولاده وتلاميذه ويأمرهم بقراءة المسند ثم يقول . . . ارفعوا هذا الحديث فقد صح عندي الآن وضعه . . .

فأحمد كان في تنقيح دائم لما رواه وموازنة قوية فيما بين يديه . . . وقد أنفق عمره المديد في الترجيح والتعليل وذلك جهد يضاف اليه بالثناء . . .

يقول الأستاذ الكبير أحمد أمين (١) ج ٢ ص ١١٠ وهو يتحدث عن البخارى رضى الله عنه ، وقد خطا في جمع الحديث خطوة جديدة فقد كان كثير من المحدثين- الأولين يقتصرون في حديثهم على ما يجمعون من أحاديث

مصيرهم فمالك بن أنس يجمع أحاديث أهل الحجاز وخاصة أهل المدينة وابن جريج أحاديث الحجازيين وخاصة أهل مكة ؟ نعم وجد من المحدثين من رحل الى غير مصره ولكن البخارى وسع هذه الدائرة وسن سنة لمن بعده من المحدثين فى طلب الرحلة وبعبارة أخرى فى طلب الحديث ، .

وفى هذا الكلام ظلم غير مقصود لأحمد فأحمد هو الذى خطا فى جمع الحديث هذه الخطوة الجديدة اذ رحل الى اليمن ثم الى الحجاز خمس مرات على بعد الشقة بينهما وبين بغداد ؟ وذلك غير رحلاته الأخرى الكثيرة وهو الذى سن هذه السنة لمن جاء بعده من المحدثين فاذا قام البخارى بأكثر مما قام به أحمد من الرحلات فهو لم يسن طريقة جديدة ولكن توسع فى تسهيل سلكه الامام وقد كان أحمد معاصرا للبخارى ولكنه أسن منه وقد استفاضت شهرته قبل المحنة وبعدها اشتهارا طبق الآفاق فلا بد أن يكون البخارى العظيم قد ألم بسيرته ومنلك سبيله وزوى عن مسنده .. بل ان كثيرا ممن ترجموا للبخارى يذكرون أنه كان على رأى أحمد فى خلق القرآن وعلمان محدثان متعاصران يتقاربان هذا التقارب فى كل شئ لابد أن يكون أحدهما قد أثر فى صاحبه ولن يكون صاحب التأثير غير المتقدم فى السن والمكانة والذويوع ..

وبعض الناس يظنون أن رواية الحديث لعهد أحمد والبخارى - كانت ميسورة هينة وما على السامع الا أن يسمع ويسجل .. وهذا ظن غافل اذ أن الأئمة من طبقة أحمد فى رواية الحديث كانوا يلمون بكل شئ .. ويتمقون فى كل شئ .. فهم فى حاجة ماسة الى معرفة توارىخ الرواة والوقوف على أدوار حياتهم وقوفا يكشف عن منازعهم ومناجمهم وقد تسلسلت الرواية أكثر من مائتى عام الى زمن الرسول فلا بد من تعرف جميع من روى الحديث فى هذا الزمن المديد أصادق أم كاذب ؟ أم مستور الحال ؟ أم صاحب نحلة معينة يذهب الى تعصدها ؟ أم رجل سياسة يندفع الى سلوك خاص ؟ فاذا فرغ المحدث من هذه الناحية على وعورتها الشاقة وعسفها العسير اتجه الى المتن .. أموافق لما يعلم من أصول الشريعة أم مخالف أم متقدم عن سواء من الأحاديث المتعارضة أم متخلف ؟ ثم يصدر رأيه فى الحديث

عن يقين وترجيح .. واذن فالمحدث من طبقة أحمد ليس راويا فقط ولكنه
محدث مؤرخ فقيه ..

واذا كان وضع الحديث قد ذاع في صدر الاسلام حتى حرم بعض
الحلفاء الراشدين رواية الحديث وعاقب على ذلك فكيف يكون الأمر مع
امتداد الزمن وقلة الوازع وغلبة الأهواء ؟ ..

لقد كان عمر الفاروق لا يقبل حديثا رواه صحابي الا اذا استشهد على
روايته بشاهدين ، وكان الامام على يستحلف الرواي بمحرجات الايمان
ومتقلاتها .. ولن يكون الاستحلاف من على والشهادة من عمر الا لشك
خامر الخيفتين وحاولا أن يدفعاه ولم يكن ذلك مع العامة فقط بل مع اجلاء
الصحابة وسابقيهم في الاسلام فقد ذكر عمار بن ياسر بعض الأحاديث
النبوية للفاروق واستدل بحادث شخصي وقع أمام عمر نفسه فجعل عمر
يقول .. اتق الله يا عمار (١) .. وقد ذكره عمار فلم يتذكر ..

وأعجب ما شوهد أن وضع الأحاديث لم يقتصر على ذوى الدخل والرب
من أعداء الاسلام .. وذوى المآرب الشخصية بل شمل جماعة من صافى
النية وذوى الغيرة فى الدين .. سئل أبو عصمة نوح بن مريم - الجامع ١٧٣
هـ - عن سبب وضعه لأحاديث سور القرآن فقال .. رأيت الناس تحولوا عن
القرآن واشتغلوا بفقهاء حنيفة ومغازى ابن اسحق فوضعتها حسبة لله تعالى (٢)
وقد نسب زورا الى رسول الله - انه قال : (ما قيل من قول حسن فأناقلته)
واذا نسب الى الرسول ذلك فلكل انسان أن يتحدث عن الرسول وينسب
اليه ويروى عنه حتى طم السيل وعج الباب وأصبح الحديث الصحيح
بالنسبة الى الحديث الموضوع كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود كما يقول
الدارقطنى رضى الله عنه وقد يكون حديث رسول الله جملة واحدة ولكن
الوضاع يتزيدون ويضيفون حتى يصبح الحديث عذة سطور ، حتى ليروى
عن شهاب الدين الزهرى رضى الله عنه أنه قال .. يخرج الحديث من المدينة
شبرا فيعود ذراعا ..

(١) أبو حنيفة : للاستاذ الجندى ص ٢١٠

(٢) أبو حنيفة : للاستاذ الجندى ص ١٨٤

فاذا كان عمر على قرابة عهده يشك ويستوثق واذا كان أعداء الاسلام وأرباب النحل يختلفون ويقتلون واذا كان ذوو الغفلة من أنصار الاسلام يختلفون ترغيا وترهيبا فأى عبء يقوم به صاحب المسند اذا واجه هذا الطوفان من المزيد بعد مائتى عام فأكثر من وفاة الرسول فأخذ يوازن ويعمل وينقى ويختار حتى جمع مسنده وجعله اماما للناس على أن الاختيار فى ذاته أمر شاق فى كل شيء حتى فى الأدب على سهولته فأنت اذا قرأت ديوان الحماسة لأبى تمام مثلا تعلم أنه قرأ آلاف القصائد حتى اختار عمده المقطوعات وليس جهد الشاعر هو جمع هذه الأبيات المحدودة التى يضمها الكتاب بل ان جهده الصادق فيما ترك وأغفل فهو شيء لا يعرف لكثرة وازدحامه وكذلك ماترك أحمد من الحديث دون تسجيل هو موضع الجهد الجاهد لكثرتة وازدحامه .. فطالما خلا الرجل الى نفسه يقرأ اسنادا لحديث ويقف أمام رواته واحدا واحدا ويتبع ما قيل عن كل راو ثم ينتقل الى المتن فيفحص ويدرسه ويوازن به غيره حتى يميل به الى النفى أو الاثبات وما نفاه الامام اضاعاف اضاعاف ما أثبت فأى رهق كابد فيما عناه ..

ونحن حين نتكلم عن الامام لانفعل سواء ممن سبقوه أو لحقوه .. ولعل أظهرهم فى السابقين مالك وفى اللاحقين البخارى أما مالك فيتفق مع أحمد فى شيء ويخالفه فى شيء يتفق مع أحمد فى أنه قبل الحديث المرسل وهو الذى سقط من مسنده الصحابى ورواه التابعى عن رسول الله مباشرة ، كما قبل الحديث المنقطع وهو الذى سقط من سنده راو فأكثر . ولعل وجهة نظر الامامين فى ذلك ان المتن فى الغالب لا ينافى ما ردد فى السنة والكتاب من ناحية ، وأن الرواة مظنة الورع والحشية من ناحية وبعيد أن يتزيدوا على صاحب الشريعة لذلك كان الحديث المرسل أو المنقطع مقبولا لديهم دون كثير من جمعة الحديث وأرباب الصحاح .. ولكنهما يقرقان فى الترتيب من ناحية وفى الكم من ناحية أخرى فترتيب الموطأ وفق الأبواب الفقهية أما ترتيب المسند فوفق الرواة وأحاديث الموطأ محدودة أما مسند أحمد فقد اشتمل على أكثر من أربعين ألف حديث ، هذه موازنة بين مالك وأحمد ؛ أما الموازنة بين أحمد والبخارى فيمكننا أن نقول ان البخارى فى

صحيحة قد تشدد أكثر من أحمد فكان يشترط في الحديث أن يكون اسناده متصلاً لا مرسلاً وان يكون كل راو من رواه مسلماً صادقاً غير مدلس ولا مختلط متصفاً بصفات العدالة ضابطاً متحفظاً سليم الذهن قليل الوهم سليم الاعتقاد .. ومع ذلك فقد وجد في صحيحة الضعيف عى قلته كما وجد في مسند أحمد والفرق بين الضعيف هنا وهناك أن أحمد قد أثبت ما يميل الى تضعيفه لعدم تعارضه مع النصوص أما البخارى فقد أثبت الضعيف وهو لا يعلم ضعفه ولو تأكد أو رجحه ما أثبتته فى شيء وهذا وجه الخلاف فى رواية الضعيف بين الامامين ..

أما ترتيب الصحيح فيفاير ترتيب المسند لأن المسند كما قدمنا مرتب بحسب الرواة أما صحيح البخارى فمرتب بحسب الموضوعات كموطاً مالك سواء بسواء .. الا أن هذا الترتيب الفقهي قد جره الى عيب ذائع فانه يقطع الحديث فيذكر بعضه فى كتاب الصلاة وبعضه فى كتاب الزكاة وبعضه فى كتاب الصيام مثلاً وفى ذلك تشتيت للنص وضياح للمقياس البلاغى والنسق التعبيرى فى صياغته لأن الحديث كامل يتألق بشعاع من البيان يزيد فى فصاحته فاذا ما تقطع خبا بريقه فأصبح عبارة جامدة مع أن قائله أفصح الخلق وسيد البلغاء وقد سلم مسند أحمد من ذلك ولكنه تعرض لشيء آخر اذ جعل من الصعوبة البالغة أن تصل الى الحديث المطلوب دون أن تعرف رواية فلكل ما آخذه ولكل محاسنه الكثيرات .

هذا وقد لحظ بعض كتاب الغرب أن فى مسند أحمد ما يدل على شجاعته الأدبية فقد ذكر أحاديث تشتمل على فضائل على وآل بيته محالاً نجد نظيرها فى صحيح البخارى وذلك فى عصر يضطهد العلويين وينسأونهم ويقف بالمرصاد لمن ينسب اليهم بعض الخير فى قليل أو كثير .. ومع اعترافنا بشجاعة ابن حنبل الأدبية فى كثير من مواقفه الخالدة فاننا أمام هذا الرأى بالذات لانرى فى المسألة جنباً يلحق البخارى فربما لم يصح فى اعتقاده مانسب من الأحاديث الى الرسول عن بنى على فأغفله لذلك وكلا الامامين صادق النية بعيد النظرة شديد الاخلاص رحمهما الله ..

جاء فى مقدمة المسند عن شمس الدين الجزرى ما نصه .

أن الامام أحمد شرع في جمع المسند فكتبه في أوراق منفردة وفرفته
في أجزاء منفردة على نحو ما تكون المسودة. ثم جاء حلول المنية قبل حصول
الأمية فبادر بإسماعه لأولاده وأهل بيته ومات قبل تهذيبه فبقى على حاله
ثم أن ابنه عبد الله ألحق به ما يشاكله وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ..

وهذا القول يؤخذ منه أمور ..

أولا - أن الامام رضى الله عنه قد قضى حياته الطويلة في شغل شاغل
بهذا المسند الشريف فكان يكتب ويدون ثم يحذف ويثبت ومات قبل أن
يجمعه بنفسه ..

ثانيا - أن عبد الله ولده - وهو من خيرة رجال الحديث والفقه قد تولى
جمعه وتبويبه وألحق به بعض الزيادات مما لم يدونه الوالد الامام ..

وهنا نسأل كيف جاز ذلك للولد وهو يعلم أن الكتاب منسوب إلى أبيه
وروايته له وحده ..

فكيف ينسب إليه حديثا لم يأمر بتدوينه وهو صاحب الكتاب ؟ كل ما قيل
في الرد على ذلك أن المقول المحتمل أن يكون عبد الله قد أضاف من
الاحاديث ما سمعه عن أبيه ولم يسجل في المسند فرأى أن تدوينه
حيث جاز مستساغ لا ينسب فيه شيء لغير راوية وذلك احتمال مقبول

ثالثا - أن أحمد قد أسمع المسند لأهل بيته وأولاده وأذن لأحمد
مجلس خاص بالحديث في منزله فمع أنه كان يحدث بالمسجد ويروى
لكل سائل وله من غير أهله تلاميذ كثيرون يفدون إليه من شتى البقاع
ومع ذلك فقد كان لا يخلد إلى الراحة في داره بل يعقد فيها مجلسا خاصا
للحديث ولولا هيامه بنفسه بالأثر الشريف ما أقبل على دراسته هذا
الاقبال مصبحا وممسيا وداخلا وخارجا ومريضا وغير مريض

هذا ولأحمد تأليف سوى المسند وقد بلغنا من أسماء كتبه كتاب
العلل ... كتاب القرائض ... كتاب التعبير ... كتاب النسخ والنسخ

كتاب الزهد وكتاب الايمان وكتاب الأشربة • كتاب الفضائل ، كتاب طاعة الرسول ، كتاب الرد على الجهمية ، كتاب المنايا • ولن نقول عنها شيئا اذ انها باستثناء كتب المسائل لم تطبع كما طبع المسند بل ضاعت في خضم الزمن وأحسبها جملة أحاديث تتعلق بموضوع بحثه وربما اشتملت على استنباط أو شرح أو تحليل ولم يدونها الامام بنفسه فقد كان يكره التدوين وانما تتبعها تلاميذه في دروسه وعكفوا عليها تبويب وترتيا حتى استوفت خلقا كاملا وانتفع بها الناس أحسن انتفاع وحسبنا ما بين يدينا من المسند فلو كان وحده مصنف أحمد لكان بسبقه وشموله ووفرة محصوله دالا على مجهود صاحبه ومنحاه فهو ثروة لا تنفد وكثر ذو نفع جزيل

حقليزرع

هل أذاك ان كثيرا من الائمة الاعلام فى الفقه الاسلامى قد أنشئوا مذاهبهم القوية والفوا كتبهم الكثيرة وجمعوا فتاويهم المتعددة ووضعوا الأصول العامة للتشريع والضوابط الهامة للاستنباط ولم يكادوا يفارقون الحياة حتى اندثرت مذاهبهم وضاعت مؤلفاتهم وتفرق انصارهم حتى لا يعلم عنهم شىء . . .

وهل أذاك أن أحمد بن حنبل لم يشأ أن يدون كتابا فى أصول التشريع أو أحكام الفقه بل كان ينهى عن كتابة فتاوية ويقتصر على تدوين الحديث وروايته . وعلى الرغم من ذلك فقد سارع تلاميذه الى تدوين آرائه وحفظ أقواله وشرح مراميه وطرقه كل مانطق به أو ناقشه من أحكام حتى أصبح امام المذهب الذائع وصاحب الرأى المعلوم . .

تلك والله عجيبة غريبة . . ولعل اخلاصه الزائد فى خدمة الفقه والحديث قد أحله هذا المحل فمضى بآرائه للذبوع وبمذهبه للرواج والانتشار وجلب اليه الانصار فى كل صقع وزمان حتى تنقلت آراؤه تطوى الأحقاب مدوية مشتهرة لاينال منها تابع الزمن ولا تصيها زعازع النقد مهما اشد . . بل تنهض شامخة عالية تزهى بصاحبها العظيم . .

لقد نهى الامام نهيا أكيدا عن تدوين فتاويه فى حياته اذ أنه رأى الفقهاء يختلفون فى القول الواحد فلو دوت جميع آرائهم لقتلوا بالعامه فى متاهة محيرة ولم يكن نهيه منصبا عليه وحده بل نهى عن تدوين آراء الشافعى ومالك ، والأول أستاذ والثانى أستاذ وقد روى عنه أنه قال . . لا تنظروا فيما وضع اسحق ولا سفيان ولا الشافعى ولا مالك وعليكم بالأصل والأصل فى مذهبه هو الحديث الشريف ففيه الغناء عن كل رأى ولو عارضه رأى آخر مما دون بعض الائمة فلا قيمة له ، وقد جاء رجل

فسأله فأجاب ... فكتب ما سمع فصاح أحمد بن حنبل ... لا تكتب فاني
أكره أن يكتب رأيي ولعلی أقول الساعة بمسألة ثم ارجع عنها غدا (١)
واذن فهناك تعليل آخر لمنع الكتابة هو أن الفقه قد يأتي بما يبطل الفتوى
فيكون تسجيلها خطأ كبيراً ومشغلة لبال الامام ولكن الرجل مشهور
ذائع وفي كل يوم يفد عليه الناس من خراسان ومصر والشام والعراق
والحجاز واليمن وكل قطر اسلامي ومع كل وافد اسئلة كثيرة ولدى
الامام تلاميذ كثيرون يسمعون ويسجلون شاء أم رفض ثم هو لا يستطيع
أن يمتنع عن الفتوى وقد سأله السائل المحتاج فلا بد من الاجابة ولا بد
من التسجيل ومن هنا تكون فقه أحمد وأثر عنه مذهبه الكبير ...

ولعل الامام كان يتحرج في شيا به من تدوين آرائه اذ أن بقيه
شيوخه من أستاذة الفقه وأبطاله أولى بالفتوى ورأى فأخذ اذ ذاك ينهى
عن التدوين . فلما خلا الميدان واصبح الفرد العلم امام الانظار تساهل
بعض الشيء في تدوين ما يقول والا فلو لزم الامام تشدده ما استطاع
تلاميذه اغضابه وارهاقه ولما رويت هذه النثره الطائفة عنه ولكنه فيما
يظهر قد قبل التدوين اخيراً على كراهية وتحرج وكان هذا القبول
المستكره مصدر الخير والاسعاد ...

واذا كان الأمام يلتزم أقوال السلف في اتجاهه ومذهبه فمن الجائز
أن تكون كراهيته لتدوين أحكامه اقتداء ببعضهم في ذلك فقد كانوا
يتحرجون من الفتوى مخافة أن تقع في غير موقعها فيهل الخطب فكيف
بها لو دونت في صحائف تناقلها الأجيال ...

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال ... ثم أسمع في
هذا شيئاً قال السائل فأخبرني -أصلحك الله- برأيك قال لا ثم أعاد عليه فقال
أرضى رأيك فقال سالم لعلی ان أخبرتك برأيي ثم تذهب فأرى بعد ذلك
رأياً غيره فلا أجذك (٢) وهذا شبيه بقول أحمد المتقدم ولعلی أقول

(١) طبقات الحنابلة ص ١٧
(٢) أبو حنيفة للأستاذ الجندي ص ٢٤٤

الساعة بمسألة ثم أرجع عنها غدا.. بالخوف من الخطأ سبب الامتناع لدى الرجلين دون خلاف ...

على أن ثروة أحمد الفقهية لا تكاد تنفصل عن الحديث في شيء. فالرجل واسع المحفوظ من آثار رسول الله لا يكاد يسأله السائل عن حكم شرعي حتى يجد الرد في حديث مباشر يلقيه الامام من غيب صدر أو يطالعه في اوراقه تحرزا وهو يحفظه ويحبه ...

قال عبد الوهاب الوراق (١) ما رأيت مثل أحمد بن حنبل فقالوا له وأى شيء بان لك من فضله فقال .. رجل سئل ستين ألف مسألة فأجاب فيها جميعا حدثنا وأخبرنا ومهما كان الرقم مبالغا فيه فهو يدل على أن الأسئلة الفقهية كانت لاتقطع عن مجلسه من ناحية وأن اجابته في أكثرها كانت نصوصا نبوية تقع موقعها الصحيح من ناحية ثانية ... ولتضلع أحمد في الحديث واكتاره منه مع كراهته لتدوين آرائه لم يشأ بعض الناس أن يعدوه من أئمة الفقه وجعلوه اماما في الحديث وحده ... قال القاضي عياض (٢) انه دون الامامة في الفقه وجودة النظر في مأخذه وقال الأستاذ أحمد أمين بك (٣) ولا خلاف في عدة من كبار المحدثين ولكن الخلاف في عدة من الفقهاء فابن جرير الطبري لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء وكان يقول انما هو رجل حديث لا رجل فقه ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه المعارف بين الفقهاء وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء واقتصر ابن عبد البر في كتابه على الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك والشافعي وخالفهم في ذلك غيرهم وخاصة المتأخرين ...

ووجهة هؤلاء أن أحمد أولا لم يترك كتابا في الفقه بل ان جميع آرائه مدونة عن تلاميذه وأنه ثانيا ينزع منزع الحديث في فتواه وأن آراءه المنسوبة اليه قد تختلف الى درجة التناقض وان ما روى عنه كبير جدا مع تورعه عن نقل فقهه وذيوعه ...

-
- (١) ابن حنبل للاستاذ ابي زهرة ١٩٩
(٢) تاريخ الفقه للحجوى ج ٢ ص ٢٢
(٣) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٣٥

ونحن لو نظرنا الى هذه التشبهات نجدها أهون من أن تنزع الامام عن صدارته الفقهية ... فأحمد .. وان لم يترك كتباً في الفقه فقد تكفل تلاميذه بنقل جميع آرائه كما تكفل تلاميذ أبي حنيفة بنقل آرائه سواء بسواء ولئن قيل ان أبا حنيفة لم يظهر في ازدهار عهود التدوين كما ظهر أحمد فذلك لا يغير من الموضوع في شيء لان النعمان قد نشر مذهبه على أيدي تلاميذه وأحمد كذلك فكيف نفرق بين الرجلين وقد عثر للامام على كتاب خاص بالفقه وهو كتاب المسائل ولم يدونه الامام أحمد بنفسه فقد كان لا يلتزم ذلك ولكن بعض تلاميذه فيما يظهر تتبع الاسئلة ورصد الاجابة حتى استوى له كتاب المسائل عن هذا التسبع اليقظ الحرص وقد وصفه المستشرق الدكتور يوسف شخت (١) فقال .. ولكن كتب المسائل الموجود منه ثلاث روايات لم يطبع منها الا واحدة طبعة خاصة يصعب الحصول عليها أقول ان كتاب المسائل هذا الذي يشتمل على أجوبة الامام أحمد على المسائل التي وجهت اليه في كافة أبواب الفقه كما يشتمل كتاب « المدونة الكبرى » على أجوبة مالك بن أنس يسمح لنا بأن نؤكد أن الامام أحمد نفسه أراد ان يكون فقيها لأنه كان يعلم مذهبا فقهيا مفصلا لا يقتصر على شرح الأحاديث ولهذا ينبغي الا نعتبر مجموع احاديثه الكبير المشهور بالمسند كأنه مؤلف قائم بذاته فحسب بل نعتبره أيضا كتابا يضع فيه الامام أحمد الاساس لمذهبه الفقهى ...

فالرجل في فتاويه فقيه أصيل استنباطا وتعليلا وتديلا ... ولا يمكن أن يكون عدم التدوين - ان صح - مجيزا لعدده من المحدثين دون الفقهاء ...

ثانيا - اذا ثبت أنه ينزع منزعه الحديث في فتواه فمعنى ذلك أن فقهه يرتكز على الحديث لا أنه غير فقيه فهو يجعل الحديث أصلا ثابتا لا محيد عنه كما يجعل سواء الرأي او الاجماع أصلا بين أصول فتاويه وفرق بينه

(١) مجلة الرسالة مارس ١٩٣٦ من مجموعة مقالات في الفقه الاسلامي .

وبين محدث يروى فقط • فهو يروى ويقيس ويستنبط وهذا عمل الفقيه
لا المحدث

ثالثا - اذا كانت الآراء لديه تختلف الى درجة التناقض فلم يسلم
من ذلك امام من الأئمة فلا يبي حيفة آراء متضاربة يأخذ بعضها أحدتلاميذه
وبعضها الآخر فريق ثان ولم يمنعه ذلك أن يكون الامام الاعظم ؛ وقد
رجع الشافعي بمصر عن مذهبه في العراق فأثنى بآراء تقف من آرائه الأولى
موقف النقيض من النقيض ولم يكن مع ذلك الامام يتبع... فكيف يكون
اختلاف الآراء عن أحمد سيلا الى خروجه من زمرة الفقهاء مع أنه لم
بدون فقهه ومن الجائز أن يكون بعض هذا التناقض من الرواة ولنا اذنا
ذلك أن نقيس وأن نرجع في ضوء ما نعهده عن مشرب أحمد ومنحاه...

رابعا - اذا كان ما روى عنه كثيرا جدا مع تورعه عن نقل آرائه فليس
الذنب ذنبه في ذلك ولكنه علم راسخ في فقه وموضع الثقة من الجماهير
وكل الناس يأتونه من شتى البقاع يسألون فيستفيدون ويرجعون فيروون
فكيف تكون هذه الاجابات الكثيرة مدعاة لابعاد الامام عن زمرة الفقهاء
وهي اذا تأملت الامر سبب أكيد في زعامته الفقهية وامامته التشريعية...
ولن ننظر اليها بغير هذا الاعتبار...

الحق أن أحمد كان فقهيا من فرعه الى قدمه واذا اختلط فقهه
بالحديث فهو اختلاط الشيء بأصله والتقاء الحكم بدليله النقل... لذلك
كان فقهه أثريا يعتمد على الأثر • ويسير في فلكه ولكنه فقه متميز ذو
هدف واتجاه...

نقد اتجه الامام الى البذور الجيدة الصحيحة من السنة المطهرة ففرسها
في حقل خصيب وتعهدها بالرى والمحافظة حتى أثمرت ثمرا ناضجا هو
ذلك الفقه الأثرى الذى يروى عنه فى أحكامه وفتاويه... ويا له حقلا ناضرا
مزدهر الأفياء يؤمه الناس في كل زمن فيعودون منه وقد شبعوا من ثماره
ونعموا بقطافه الدانيات....

وكما ظلم أحمد فحاول المحاونون أن يخرجوه من الفقهاء فقد ظلم

فقه ظلما آخر اذ انطلقت بعض الشائعات تصفه بالجمود والتشدد والتزمت وهو من كل ذلك براء بل انه فى ميزان البصر انصائب أبعد المذاهب عن الجمود كما سيتضح بعد حين وهؤلاء الذين يصفون فقه الرجل بالتشدد يخلطون بين سيرة أحمد وفقهه ؟ فالرجل فى حياته كان يأخذ نفسه مأخذ الصرامة والتحفظ والترفع ..

فهو زاهد عيوف يحتقر رغبات الحياة واضواءها البواهر كما أنه تقى ورع متشدد يتمسك فى عباداته بأدق ما يحفظ فى السنة والكتاب وأشق ما يروى عن الصحابة والتابعين وهذا فى سيرته وحياته ، ولكنه فى فقهه لا يلزم أحدا بما ألزم به نفسه بل أفتى بما اتسع له الكتاب والائثر من تسامح وسعة... فكيف يخلط بين فقه الرجل وسيرته فتحكم على المذهب بما عرف عن صاحبه فى حياته الخاصة من ايمان فى النسك والزهادة والحرمان... ولو كان هذا الحكم الجائر من غير المتقنين لهان الامر وسهل ولكن الذى يظلم فقه الامام هذا الظلم فريق من أئمة الكتاب وقادة المفكرين وهم بهذا الخطأ يحكمون على أنفسهم أنهم خاضوا فيما لا يعلمون واستعموا الى الشائعات العامة دون نظر او تمحيص... والا فكيف يقول مفكر مجدد باحث كابن خلدون فى مقدمته .. فأما مذهب أحمد فمقلده قليل لبعده مذهب عن الاجتهاد وأصالته فى معاضده الرواية والاخبار بعضها ببعض

ويقول الاستاذ ولتر باتون (١) فى كتابه ابن حنبل والمحنة «ان شخصية أحمد كمحدث وكرهيته للتعميم والقياس عاقاه عن أن يخلف مذهباً فكرياً منسقاً وقد تقوم عنه فى أيامنا هذه فنصوغ له آراءه وافكاره وان تنهض بتشكيلها ولكنه لم يكن ميالاً الى القيام بهذا الترتيب والتنظيم ومن ثم اوهن احكامه وتقاعده من تأثير المدرسة الحنبلية اذ أن تعاليم امام الحنابلة لم تكن منسقة مبوبة ففقد الحنابلة فراغاً كبيراً قبل أن يكشفوا للعالم عن مكنون روحها وخصائص مبادئها وذلك على صورة تحقق لها رجحاناً ظاهراً وتأثيراً قوياً ...

ويقول الاستاذ محمد سعيد أحمد بك فى سلسلة مقالاته .. الاجتهاد

في التشريع الاسلامي (١) وظاهر من مجهود أحمد وطريقه أنه جعل كل اهتمامه في جمع الحديث ونتج عن ذلك أنه أخذ بأحاديث ضعيفة فإذا قارنا أبا حنيفة الذي جعل القرآن رائده الأول واجتهد في الرأي مستضيئاً بنوره ومستنبطاً أحكامه من آياته وابن حنبل الذي لم يجتهد في الرأي الا قليلا وجدنا أن هناك فتورا في الاجتهاد الذي هو أصل من أصول الاسلام بين أول الائمة وآخرهم ...

فهؤلاء ثلاثة من أفاضل المفكرين في الشرق والغرب والقديم والحديث يعلمون عن فقه أحمد مالا يتفق ومنهجه الملموس وغير هؤلاء كثيرون ممن لم يدرسوا أحكام الرجل ولكنهم سمعوا عنه مالا يمت اليه فاعتقدوا ذلك اعتقادا لا يتطرق اليه الريب في شيء .. فابن خلدون يحكم بعد مذهبه عن الاجتهاد ولو كان الامر كذلك ما ظهر فيه ائمة يجتهدون كابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب ولاندرثر كما اندثرت عشرات المذاهب .. والاستاذ باتون قد درس حياة الرجل والف فيها كتابا طويلا ممثلا ولكنه لم يدرس فقهه فحكم غير صادق بأنه لم يخلف مذهبا فكريا منسقا ...

مع أن مذهبه ذو أصول معروفة مدونة وله قواعد في الاستنباط لانزاله تحتفظ بمرونتها السهلة وشمولها العميم . والاستاذ سعيد أحمد يدرس التشريع الاسلامي لا من مصادره وطرق أحكامه بل من بعض ما كتب عنه فيقرر أن في مذهب أحمد فتورا في الاجتهاد الذي هو أصل من أصول الاسلام ولا بد ان نأخذ العبرة من ذلك فلا نجيز لمفكر ما أن يحكم على أمر لم يتعمقه بنفسه فابن خلدون مفكر فيلسوف في الاجتماع والتاريخ ... ولكنه لم يدرس فقه أحمد فحكمه مرفوض مردود وكذلك كل من يتلقف الآراء الشائعة في الشرق والغرب فيتناقضها دون تمحيص انما الحكم على فقه الرجل لا يكون الا من فقيه أصيل متضلّع أنفق عهده طويلا في دراسة الأصول والقواعد الفقهية دراسة عميقة يدها النظر الصائب والحياد الدقيق .. هنا يكون الرأي صائبا أم قريبا من الصواب

ولا نكاد في عصرنا الحاضر نجد من قام بهذه الدراسة المنصفة عن بصير
 نقب ، واطلاع واسع وصبر بالغ غير الأستاذ الكبير محمد أبى زهرة
 فمع مؤلفاته الفقهية الكثيرة فى الاحكام التشريعية قد وضع عدة اجزاء
 كبيرة ضخمة عن أئمة الفقه الاسلامى وخص كل امام بمجلد كبير خاص
 فتحدث عن أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وابن تيمية وابن
 حزم ، حديث المستوعب الجلد الذى يتعمق الاصول ويملك أسباب الترجيح
 عن نصفة دقيقة وحياد أمين .. ومثل هذا الدارس الذكى الدؤوب جدير
 أن يصل الى اللباب دون • تحيز ومغالاة ... وفيه التحيز .. ؟ وقد درس
 كل امام على حدة فواضح اصول مذهبه وطريقة تفكيره مؤيدا رأيه بالدليل؟
 فهل سارا لاساذ أبو زهرة مع هؤلاء الذين يرمون أحد بالخوف من الاجتهاد
 ويصفون مذهبه بالتزمت الكريه ؟ أو انه انصف الرجل عن يقين فرد
 الى مذهبه انفقى اعتباره المكين ..

لقد درس الاساذ الكبير أبوزهرة أصول مذهب أحمد فوجدها
 كما دونها العلامة ابن القيم فى أعلام الموقعين .. لا تخرج عن خمسة
 أصول

أولا : النصوص - فاذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت الى ما
 خالفه وأظن أحدا لا يعارض فى أفضلية النص فهو فى بابه أقوى من غيره
 واليه لجأ جميع الأئمة دون تمييز

ثانيا - ما أفتى به الصحابة ولا يعلم مخالف فيه فاذا وجد لبعضهم
 فتوى ولم يعلم مخالفا لها لم يتجاوزها الى غيرها وتلك وجهة نظر معقولة
 فالصحابه الاخيار قد عاشروا الرسول ولا بسوء فكانوا أدري بوجهته ولو
 وقع بعضهم فى الخطأ لصححه الرسول وعلم ذلك فلا يروى أو عارضه
 غيره من الصحابة بعد وفاة الرسول فيكون اختلافهما سبيلا لايضاح
 الحق وتمحيص الصواب ..

ثالثا - اذا اختلف الصحابة فى رأى تخير من أقوالهم ما كان
 أقر بها الى الكتاب والسنة (وفى ذلك اجتهاد صريح) ولم يخرج عن
 أقوالهم فاذا لم يتبين له بعد الاجتهاد والبحث - موافقة أحد الاقوال حكى
 خلافتها ولم يجزم بترجيح

وأما - الاخذ بالحديث المرسل والحديث الضعيف اذا لم يكن في الباب شيء يدفعه وهذه العبارة تفيد أن الحديث المرسل والحديث الضعيف كليهما لا يفتيان شيئا أمام نص صريح أو قياس معتدل فاذا كان الحديث الضعيف لا يوافق روح التشريع رفض اما اذا وافق فهو مقبول ... وقد يختلط لدى بعض الناس معنى الضعيف بالموضوع . والفرق بينهما في الحكم بعيد فالموضوع مجزوم بكذبه فهو مرفوض والضعيف غير مجزوم به فينظر اليه في ضوء ما علم ...

ولنا أن نقول ... اذا كان الاخذ بالضعيف مقيدا بموافقته لنص معروف فانه لم يأت بجديد .. ويكون الاخذ به اذ ذاك عملا بالنص السابق أو الروح العامة للتشريع فالأخذ به اذن للاستثناس لا للاستشهاد كما هو واضح تمام الوضوح ...

خامسا - القياس .. وهو مناط الأخذ والرد لدى من يشتون جمود المذهب الحنبلي وتقيد كابين خلدون وقد رفضه أصحاب المذهب الظاهري فتحجر مذهبهم تحجرا مات فيه الحياة كما تثبت به أناس جعلوه يقف أمام النص فقلوا غلوا كبيرا .. وكادوا يخرجون به عن جوهر التشريعة ولا نغنى بهؤلاء الحنفية فهم قوم أذكاء متدلون ولكننا نقصد ذوى التصب لعقولهم وأفهامهم دون تواضع حبيب لما بين ايديهم من القول ...

فما موقف أحمد من القياس .. ان الرجل أثرى يتمسك بالنصوص وقد جاء فيها كتابا وسنة ما يحض على القياس فليس له أن يرفضه ويأباه قال الله تعالى (ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وأول الاستنباط وأعلها القياس .. وقال تعالى (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) فهذا تعليل واضح لتحريم الخمر والميسر ... والقياس يستند أول ما يستند الى التعليل ...

وجاء في السنة أنه قصد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل

ينكر ولدا له رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام هل لك ايل قال نعم ؟ قال ما أولوانها .. قل حمر .. قال هل فيها من أورك قال نعم قال فمن أين ؟ قال الرجل لعله نزع عرق .. قل .. وهذا لعله نزع عرق فهل يكون القياس غير ذلك ؟ وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له ان أبى أدركه الاسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع الرحيل والحج مكتوب عليه أفأحج عنه ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أنت أكبر ولد له قال .. نعم .. أرأيت لو كان على ابيك دين فقضيته عنه أكان يجزى ؟ قال نعم فحج عنه فهذا قياس للحج على الدين

وقد ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن فقال له بم تحكم فيهم ؟ فقال بكتاب الله تال فان لم تجد ؟ قال بسنة رسوله قال .. فان لم تجد ؟ قال اجتهد برأى فقال النبي صلى الله عليه وسلم .. أصبت يامعاذ .. أفليس هذا تصريرا بالاجتهاد ؟ ..

أجل لقد روى أحمد ما تقدم من الآيات والاحاديث فلا مفر لديه من الاجتهاد بالمقايسة والتعليل لأن الرجل صاحب منهج متبع فهو أثرى وقد أرشده الاثر الى القياس فلا بد أن يقيس

واذا كان الرجل يتمسك بالاثار حتى فيما لا وجه للتمسك به .. اذا أنه حين خرج من سجن المعتصم وآثر الاختفاء اختفى ثلاثة أيام فقط في منزل بعض أصدقائه وصمم في اليوم الرابع على الخروج فخوفه صاحب المنزل واسمه ابراهيم (١) بن هانيء من القبض عليه فأصر على الخروج واستدل بأن رسول الله قد اختفى في الغار ثلاثة أيام فقط ثم ظهر .. فلا بد أن يقتصر اختفاؤه أيضا على ثلاثة أيام ؟ ..

اذا كان أحمد يتمسك بالاثار في ذلك ؟ أفلا يتمسك بالمعس وقد دعا اليه الاثر وزكاه ولكن .. ما موقف ابن حنبل بين المتأخرين في

رفض القياس من الظاهرية والمغالين في الاستمسك به من خصوصهم
ذلك سؤال ترك للاستاذ الكبير « محمد أبو زهرة » الاجابة عليه فيقول
ما نصه ..

لقد كان لأحمد المحدث والفقيه موقف حسن فكان بين ذلك قواما
فلم ينف القياس نفيا باتا كما فعل الظاهرية الذين حكموا بالنصوص دون
سواها وسهل لهم طريقهم انهم لم يتلوا باستفتاء الناس فلم يقصدوهم
كما قصدوا أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد ولم يغال في القياس مغالاة
العراقيين الذين خلفوا أبا حنيفة وتلاميذه فوقوا العلل المضطردة في
زعمهم في مقام المعارضة للنصوص وفتلوى الصحابة ؛ لقد أخذ أحمد
بالقياس وكرره كما جاء في الروضة لابن قدامة الحنبلي اذ فيها أن أحمد
رضي الله عنه قال ... لا يستغنى أحد عن القياس وهي كلمة حق
بالنسبة للمفتي الذي يتصدى للافتاء فانه مضطر اليه لا محالة لأن الناس
يجد لهم من الحوادث ما يقتضى قياس غير منصوص على منصوص ولا
يستطيع الفقيه أن يجد لكل حادثة نصا من الكتاب والسنة أو فتاوى
الصحابة . وما دام لا يجد شيئا من ذلك فاما ألا يفتي فيكون الناس في حرج
شديد ولا يصلحون أحكام الدين في أعمالهم واما أن يقيس رفعا للحرج
واجابة لداعى الارشاد والهداية ولا يغنى التوقف في هذا قليلا (١) .

هذا موقف أحمد من القياس كما يعرفه الفقهاء المتضلمون لأكما
يزعمه ابن خلدون وأضرابه ممن يحكمون في كل شيء ويلجئون كل بلبل
وهم كبشر - محدودو الطاقة فليتهم يقتصرون على ما يحسنون !

لقد كان من عادة الامام اذا سئل أن يستشهد بالحديث فيقول حدثنا
وأخبرنا وقد فهم بعض الناس ان هذا الاستشهاد لا يخرج في جميعه عن
النص وذلك غير صحيح فقد يكون الاستشهاد نصا في الموضوع وقد
يكون قياسا لموضوع على موضوع ! فأحمد حين يقول حدثنا ، كان في
بعض أحواله يقيس شيئا بشيء ثم يأتي بالحديث المقاس عليه فيحسبه بعض

المتسرعين نصا وليس له! والرجل يعيش في أوج الحضارة ببغداد وقد تنوعت المدينة وازدهرت أبواب التقدم والنهوض فلو وقف عند النص اذ ذاك ما سمي اليه طالب معرفة ! ولكن الوافدين كانوا يتزاحون عليه بالمناكب ويتحملون عناء السفر شهورا ذات أيام وليال لينهلوا من موروده ويقبسوا من ضوئه ... ولو جانب القياس ما اتسع له أن يفتى في كل أمر ويحكم في كل مسألة ؛ أما وقد حمل لواء الفتوى في هذا الزمن المتسع الفياض وصدر عنه الناس مرتاحين مسرورين ! فلا يتصور أحد معاداته للقياس ، ذلك بعيد بعيد ؛ ولماذا نسهب في توضيح ذلك وأمامنا ثروة هائلة من فتويه دونها تلاميذه وأنصاره من مذهبه - فليقرأها الفقيه المتبصر ثم يمضى بحكمه حيث يريد !

وقد التفت الأستاذ أبو زهرة في مبحثه الجليل عن الفقه الحنبلي الى ناحيتين هامتين لاتجعل هذا الفقه المسير في وصف المذاهب الثلاثة الاخرى بل يتقدمها لدى النظر الصحيح أما الناحية الأولى فان أصحاب الفروض والتفريع يتقيدون بضوابطهم المنطقية ومقايستهم الاصولية فيما يأتي من الحوادث أما أحمد وأصحابه ممن لا يجعلون القياس كل شيء في التشريع ولا يفترضون في ضوئه ما سيجد وما سيحدث مما لم يكن بعد فقد تركوا الباب مفتوحا للاستنباط والتعليل وأصبح مذهبهم ذا مرونة واضحة تسمح له بالاحاطة والشمول ...

يقول الأستاذ ^(١) وقد لاحظنا من الاستقراء الفقهي أن الفقه الذي يكثر فيه التفريع ويضبط بضوابط قياسية كالفقه الحنفي بشكل خاص والفقه الشافعي الذي يقاربه وان لم يماثله يكون الضبط القياسي مقيدا له فاذا جاء الفقيه وابتنى بحدوث وجد النصوص المذهبية القياسية قائمة وقد تكون غير مناسبة للزمان فتقف محاجة بين الفقيه والافتاء بالصالح ولذلك اضطر المجتهدون في المذهب الحنفي لسبب ضبط الأقيسة والتفريعات القياسية أن يستكثروا من الاستحسان بالعرف .. وقد سلم من هذا الفقهاء

الذين تقيدوا بالوقائع لا يفتون في غيرها ولا يقدرّون الأمر قبل وقوعه
فطريقة التخرّيج عندهم غير مفيدة بقول سابق من الامام وأصحابه ؟ ...
وواضح أن فقه أحمد لا يفترض الفروض العقلية ولا يجعل الاقيسة
ضوابط ملزمة فهو الفقه المرن الحبيب ...

هذه الاولى ... اما الثانية فقد فتحت على الفقه الحنبلي أبوابا متسعة
المنافذ متشعبة الطرق اذ أنه في باب المعاملات وهو أضخم أبواب الفقه
وأصقها حاجة بالناس قد جعل الأصل في الأشياء والاباحة فاذا ورد
تحريم شيء معين فهو محرم وما عداه فقير محظور ... أما العبادات
فقد قيدتها النصوص الواردة ولم تترك مجالا للتحليل ، والتحريم ولقد
قال ابن القيم في تقرير هذه الحقيقة (١) ...

والاصل في العبادات البطلان ؟ حتى يقوم دليل على الامر ؟ والاصل
في العقود مراعاة الصحة حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم والفرق
بينهما أن الله سبحانه وتعالى لا يعبد الا بما شرعه على ألسنة رسله فان
العبادة حقه على عباده وحقه الذي أحقّه هو ورضى به وشرعه وأما
العقود والمعاملات فهي عفو حتى يحرمها ولهذا نعى الله سبحانه وتعالى على
المشركين مخالفة هذين الاصلين وهما تحريم مالم يحرمه والتقرب بما
لم يشرعه وهو سبحانه لو سكت عن اباحة ذلك وتحريمه لكان ذلك عفوا
لا يجوز الحكم بتحريمه وابطاله فان الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه
وماسكت عنه فهو عفو .

ويقول الأستاذ أبو زهرة تعليقا على ذلك (٢) وقد كين ذلك الأصل
الموسع وهو جعل معاملات الناس على أصل العفو والاباحة حتى يقوم الدليل
من الشارع على التحريم سيما في ان كان هذا المذهب أوسع المذاهب في
إطلاق حرية التعاقد وفي الشروط التي يلتزم بها المتعاقدان فأقر من الشروط
مالم يقره غيره من الفقهاء وسار في ذلك على منهاج أساسه احترام كل ما يشترطه

(١) أعلام الموقعين ج ١ ص ٣٠٠ وقد نقلناه عن كتاب ابن زهرة
ص ٢٠٢

(٢) ابن حنبل للاستاذ أبي زهرة ص ٢٠٢ .

المتعافدان • والالزام به حتى يقوم دليل من الشارح على تحريم ذلك
الاشتراط أو بطلان الحقيقة الشرعية التي تكون منه •

ونحن بعد ذلك نطمع فيمن يرمون المذهب الحنبلي بالضيق والجمود أن
يدرسوه ويتفحصوه ثم يوازنوا بينه وبين غيره في منجاء العمل سعة وضيقا
وتحريرا وإباحة وحيثذ يبدو الصباح لذى عينين ويعلم الناس أى حقل
خصيب غرسه الامام فتهدلت أغصانه وآنت أكلها ضعفين وما زالت تؤتى
الجنى وتمتع العين وتمد الظلال ••

شمرناضج

لقد حمل أحمد شعلة الحق المقدسة وظلت تتناقل على يده من جيل الى جيل فكان عجباً أن يكون انبارزون من دعاة التجديد في الاسلام من تلاميذ أحمد وأتباع فقهه ودارسى مذهبه ! وتلك حقيقة لا تقبل الجدل فقد تسبعت اسنوز وثلما اختلطت مسائل ندين وتشابكت طرق الحق وتكاثفت غيوم الريب ، قام فقيه حنبلى يرشد الناس فيدد الشبهات ويدعو الى طريق مستقيم !

تلك شعلة أحمد بلا جدال فقد حمل راية الكتاب والسنة في عصره وجعلها وحدها طريق النجاة ورائد الخير ... وتمر الليالى مثقلة بأباطيلها وشكوكها فاذا الحق يلتبس بالباطل واذا الظلام يطفى على النور واذا الناس من حيرتهم المضنية فى أمر مريج ! وهنا يقوم تلميذ مخلص من تلاميذ أحمد يترسم طريقه ويسلك نهجه ثم يحمل راية الكتاب والسنة فاذا الحق واضح لايس فيه واذا النور مضى لاطلام معه واذا الناس سائرون خلف أمام مطاع على صراط مستقيم !

هلم معى نعدد مجددى الفقه وموظى السنة فى غفوات الزمن فنذكر ابن تيمية وابن القيم فى عصر الماليك ثم نذكر ابن عبد الوهاب والشوكاتى فيما تلاه من العصور ... ثم نرجع بتعاليم محمد عبده ورشيد رضا وعبد المجيد سليم فى العصر الأخير الى ابن تيمية وابن اقيم ! وتتسائل بعد ذلك من هؤلاء انيسوا ورثة أحمد بن حنبل وحاملى شعلته المقدسة فتم على أيديهم الخلاص وفتح بطرقاتهم القوية باب الاجتهاد ! فكانوا أطيب الثمار فى حقل ناضر بهيج !

واذا كان ابن القيم ثمرة ابن تيمية واذا كان الشوكاتى ومن جاء بعده ثمرة ابن عبد الوهاب فلنقتصر موازنتنا العاجلة على الرجلين العظيمين ! تاركين

للقارئ أن يقدر الأثر الطيب لمدرسة أحمد وكيف انتشرت في حرمة
الرفيع مبادئ الاسلام وتعاليمه فنصر في روضها ما ذبل وأضاء في ألقها
ما أظلم وتلك معجزة أحمد على الاحقاب !

نشأ ابن تيمية في عهد كعهد أحمد فإذا كان العصر العباسي مليئاً بالجلد
والمناظرة في الكلام والعقائد وإذا كان الزنادقة والملاحدة والفروق المختلفة
يبدرون شكوكهم في نفوس العامة فيلبلون الخواطر ويحيرون العقول، وفي
عصر ابن تيمية تعددت طوائف المجادلين من شيعة ذات شعب وفرق ومن
جهمية ومعتلة ومن أشاعره ومجسمة ومن صوفية وأرباب حلول واتحاد
وكل حزب بما لديهم فرحون ! فأخذ كل فريق يؤول القرآن ويستشهد
بما يحب وفق مشربه ويخترع الاحاديث لتعزيد وجهته ويرمي بالكفر
غيره ممن لا يذهب معه في الطريق ! فإذا أردت أن تنظر الى روح الاسلام
بين ذلك لم تكد تعرفها في شيء فكتب الفقه جامدة هامة تمسك باللفظ
وتدور حوله ، وهي في أكثرها متشابهة مقاربة فالمؤلف لا يوب ولا يرب
ولا يجتهد في تحليل حكم أو تبسيط حجة ولكنه اما مطيل فيسهب في شرح
الفاظ غيره ممن نقل عنه واما موجز ؛ فيختصر كلام غيره اختصاراً يجعله
أقرب الى الاحبى والمعيات ! وقد ولجت أكثر الغاية من العامة باب الشطط
والجموح ففرقت في الدروشة الموهومة وشطحت مع الصوفية شطحات محيرة
ثم زادت فجعلت قبور الأولياء مساجد ! وأخذت تتوسل بأصحاب القبور
وتلجأ اليها في كل مرغوب يطلب من شفاء المريض ووفاء الدين والافراج
عن المساجين وتولية المناصب وزواج العرائس ورواج التجارة واكتناز المال !
وتعد ذلك من صميم الدين ولبابه ! فكان لابد من قائد يدد هذه الأوهام
ويحارب تلك الأراجيف ! ولم يكن ذلك غير ابن تيمية فقد جابه التيار
المتلاطم بقوة وصبر ووقف في الطريق المزدحم ليرفع شعلة أحمد ويحمل
راية السنة والكتاب !

السنة والكتاب ! هما وجهة ابن تيمية وقبلته ! وكما سلك أحمد سبيل
التنزيه وبعد عن التأويل فقد جاء تلميذه من بعده ليعلن خطته ويقفو أثره
فذهب مذهب السلف في قبول النصوص كما جاءت ، لان ما يتعلق بالله

وصفاته شيء وراء العقل لا يصل إليه الانسان ! الا اذا قاس ربه على نفسه وذلك خطأ كبير . ومن ثم فقد اثبت لله ما ذكره كتابه من الاستواء والصورة والعين واليد ولكن كما وصف بذلك نفسه فى القرآن ؛ دون كيفية أو تمثيل أو تشبيه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ... كما ذهب مذهب أحمد فى اثبات الصفات لله لان الله قد أثبتها لنفسه فلا داعى الى نفيها كما ترى المعتزلة وحمل على التأويل حملات قوية لأن الله عز وجل قد صاغ القرآن ليفهم دون عائق فلا يصح صرف الظاهر من الآيات الى معانى أخرى دون دليل .. وقد كانت هذه الآراء السلفية سببا فى محنة الرجل كما كانت آراء احمد سببا فى محنته .. فمقدت له مجالس المحاكمة وقام القضاء من خصومه بأستلته فتأبر وناقض وخرج ظافرا منتصرا ؛ الا أن كيد الخصوم لم ينقطع فدأبوا على الوشاية به وأوغروا صدور أولى الأمر عليه؛ فسجن كما سجن أحمد ؛ ثم أفرج عنه وما زال يسجن ويسجن حتى مات فى سجنه وقد انتصر له الكثيرون فسلكوا طريقه . وأحبوا السنة وأماتوا البدعة . وجاء نصر الله .

واعظم مالاقى ابن تيمية فى جهاده من المحاربة والصراع كان على يد الفقهاء من ناحية ، والمتصوفين من ناحية ثانية . ومن المدهش أن يكون قضائه خصومه . فقد عقدت احدى محاكماته فى عصر ؛ وحشر له انفقهاء من غلاة النجاصين ؛ وأعداء البحث ؛ وانطلق كل يرسل ما فى جعبته من الن سهام فاذا تكلم محاولا الرد قوطع ؛ واذا استشهد غولط ؛ حتى ضقت أنفاسه وعيل صبره فسأل ما ذنبه ؟ فقال ممثل الاتهام (شمس الدين بن عدلان) أنت تقول ان الله فوق العرش حقيقة يتكلم بحرف وصوت ويشار اليه الاشارة الحسية فقام ينفى عن نفسه ما سمع فهاجمه - رئيس المحاكمة القاضى ابن مخلوف وأسكته ؛ فسأل ابن تيمية ومن يكون الحكم ؟ فقال أنا ، فرد عليه مستهزئا كيف تخاصم وتحكم ؟ فأمر بحمله الى السجن وصبر الرجل على محنته كما صبر سلفه الامام ؟

ومن العجيب ان ابن مخلوف هذا قد فسد الأمر بينه وبين حاكم مصر ، وهم صاحب الأمر أن يأخذ من ابن تيمية كلمة توجب عقابه فأبى

وامتنع ، حتى قال ابن مخلوف ما رأينا أعفى من ابن تيمية (١) ؟ لم ينق
ممكنا فى السعى عليه وحين قدر علينا عفا وأصلح .

الا يذكرك هذا بموقف ابن حنبل من ابن أبى دؤاد ؟ ثم ألا ترى فى ذلك
أنرا واضحا لاقتداء التلميذ بالأستاذ ، وترفعهما عن حزازات البشر ونزوات
الناس . أما المتصوفة فقد غلوا أكبر غلو فيما زعموه من الحلول والاتحاد
ووحدة الوجود ومضوا بالعامية فى طريق ملبد كثيف . وكان الفقهاء يهابونهم
ويجاملونهم وينسبون اليهم من الكرامات والمكاشفات ما يرتفع بهم ؟ الى
ذروة الانبياء والمرسلين بل ان بعضهم كان يرى درجته فوق النبى ؟ لأن
النبى يتلقى عن جبريل . وهو يتلقى عن ربه مباشرة . وكان لهؤلاء حظوة
بالغة لدى ولاة الأمر من الملوك فزددت - بذلك مكاتهم فى الدولة وقدر
العامية كل ما يروجونه من الآراء والمعتقدات . ونو كان ابن تيمية كغيره
لسالم وحيد ولكنه تحدى العاصفة وشهر بهم فى كل مجتمع وكتب الكتب
الخاصة بتزيف آرائهم وكشف أضاليلهم وقد علم أن الشيخ نصر النجوى من
أساطينهم فى مصر وله من الخطوة لدى أولى الأمر ما يجعله صاحب الأمر
والنهى ؟ فكتب اليه ابن تيمية مقالا فى ثلثمائة سطر ؟ أنكر به مذهبه ورد
باطله وأيد حججه بالقرآن المبين والسنة الصريحة فثارت ثورة المتصوف
المتصعب ؟ واستعان بالناصر قلاوون ؟ فأمر بحاكمته بدمشق ؟ وقد استطاع
ابن تيمية أن يظفر بالبراءة لما أبداه من الحجج والبراهين ولكن ذلك لم
يمنع أنصار اندروشة الكاذبة من استدعائه بمصر وسجنه بعد مقاضاة زائفة ؟
وقد قبل المحنة فى ثبات وخشوع . ولا غرو فهو غرس طيب لصاحب المحنة
الأولى ؟ وفى هديه سار ! لقد رفع ابن تيمية راية أحمد فى عصر الماليك .
واذا كان قد خالف صاحب المذهب فى بعض أحكامه ؟ فذلك خلاف الرأى
والنظر ولم يقل أحد ان ابن حنبل قد جعل آراءه حتما مفروضا ولا مجيد
عنه .

ولكنه اجتهد فى ظلال النصوص وترك لسواه أن يجتهد وقد اجتهد

ابن تيمية بعد أن درس المذهب الحنبلي ، وأفضت به دراسته الى آراء جديدة قيمة أضافت للمفقه الحنبلي ثروة جديدة !!! فكأن الرجل بتجديده قد أسهم في رفع البناء وإقامة الصرح على أساس ثابت متين ٠٠٠ أما حملته على الأضرحة فقد كانت شعلة جديدة رفعها ابن تيمية ليلتقفها - بعد قرون - حنبلي جديد هو محمد بن عبد الوهاب .

نقد كان وجود ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بالعصر المملوكي ؛ وهو عصر التقليد المحض شذوذا نادرا يقع موقع العجب والتساؤل لأن هذه الفترة من تاريخ التشريع الاسلامي تعتبر أجذب الفترات وأمحلها على كثرة ما وضع فيها من المتون والحواشي والتقاير حتى ليقول الاستاذ محمد الحصري (١) عن هذا الزمن الماحل (لم يكن من الواضح أن أكتب شيئا في هذا الدور لأن رياح الاجتهاد فيه قد ركدت ؛ وليس فيه من المزايا ما يملئ على الكاتب وينطق القائل !!! ثم يقول ، ولكن لما رأينا من اتصال هذا الدور بنا وحاجتنا الى النهوض والاقداء بصالح سلفنا أردنا أن نوضح ما فيه من العيوب ومتى ظهرت أمكن ذوو الفكر والمقدرة أن يقوموا بعلاجها) ونحن نرى أن الاستاذ الحصري قد أعجل عن أن يكتب فيه فصلا هاما يبين فيه أثر ابن تيمية وتجديده ؛ ويعرض للمسائل الفقهية التي خالف فيها الأئمة ويبين منحاها في التجديد كما يذكر تلميذه ابن القيم وكيف اتقنى أثره وسار في التجديد على نهجه !!!!

واذ ذاك يكون المؤرخ للتشريع قد أنصف العهد المملوكي انصافا حسيدا ، أما أن يقرن الاستاذ الحصري ابن تيمية وابن القيم بفقهاء العصر المقلدين كالنووي وعزالدين والانصارى والسيوطى والسبكي وابن دقيق وغيرهم من أرباب التقليد المحض فهذا ما يجافي الواقع وينافيه !!! وأما أعرف من أجلة الفقهاء في العصر الحاضر من يفضون ابن تيمية دون أن يلموا بفقهه ولا أزعم أن الاستاذ الحصري من هؤلاء ، ولكنه قد أعجل فني وكان خيرا لو تمهل فذكر !

مضى ابن تيمية ولم تمض تعاليمه !!! بل انشق قلب الجزيرة العربية

بعد أربعة قرون عن عالم حنبلي فذ قرأ فقه الامام أحمد قراءة فاحصة ثم درس كتب ابن تيمية دراسة اللعجب المتأمل !!! ورحل من بلدته الى المدينة المنورة فالبصرة فبغداد فكرستان فهمدان، فأصفهان، ثم رحل الى مسقط رأسه بعد هذه الدراسة النافذة وتلك الرحلة التي ألم فيها بأحوال المسلمين في بقاع العالم الاسلامي وأخذ يقارن ما قرأ في الكتب عن السلف وما عليه المسلمون من تأخر وانحطاط فثار ثائره واندلع في صورة بركان متوهج يرمى بالشواظ المحرق !!! هؤلاء هم المسلمون ؟ في كل قطر يضلون سبيل التوحيد فيجعلون مع الله شركاء اذ يسارعون الى الاضرحة والقبور فيقدمون النذور والقرابين ويسألونها النفع والخير ويطرامون على حجارتها البكماء كما يترامى الابن المذنب على قدمي والده ؟ بل انهم جاوزوا الاولياء الى النبات فهذه شجرة يطاف حولها وهذا نبع يشرب منه للاستشفاء وهذه نفوس تذلل للحجارة ، وهي لغيرها من ظلمة الملوك وفجرة الامراء أذل وأخضع ولن تقوم عزة اسلامية وأبناء الشريعة في هذا الوضع المشين فلا بد من اصلاح ! ولا بد من تغيير ٠٠٠ !!!

ثم ما هذه الكتب الفقهية التي يقرؤها المسلمون في مشارف الارض : انها اختلافات جافة وقشور لفظية باهتة وسرد لأقوال أناس من المتقدمين وعكوف على نصوص جامدة ؛ دون اجتهاد وتجديد !!!!

فأين الكتاب والسنة ؟ وأين الرجوع الى آثار السلف ؟ انه يعلم من دراسة مذهب أحمد أن الامام المتحن كان يرجع بمصادره الى الكتاب والحديث بادي ذي بدء ثم اذا اجتهد في حكم قايسه بنص ثابت من الأثر وقد كره تدوين الآراء لأئمة الفقه في عهده كيلا تهد الناس عن النصوص الدينية في الكتاب والسنة ؟ فما لنا نجعل آراء الفقهاء كل شيء فلا نسأل أي فقيه عن دليله وبرهانه ، بل نتقبل حكمه قضية مسلمة لا تقبل النزاع !! أعقمت الارض أن تبث مجتهدا من طراز الاوائل ، وقد تغير الزمن وجدت أحداث تتطلب الفتوى وتحتاج الى استلهاام الكتاب والحديث !! ثم انه يطالع كتب ابن تيمية الفقيه الحنبلي فيجده شجاع الرأي يفتح باب التجديد ويحارب المقلدين بأسلحة لا تفل ؟ فيسأل عنه ؟ فيعرف أنه حنبلي يذهب مذهب أحمد

فى الرجوع الى السلف ؟ وعدم التقيد بأقوال انفقها ؟ ممن يخطئون ويصيبون
واذ ذاك يجد فيه معجزة اخلاص ويؤمن بمذهبه التجديدى، ويصحح صيحة
فيوقف العيون النائمة ويفتح مغاليق العقول .

لقد تعرض ابن عبد الوهاب الى العسف والاضطهاد حين قام بدعوته في
مسقط رأسه ، « عينة » فانتقل الى الدرعية مقر آل سعود ، وكانت القبائل
لعهده كما يقول الاستاذ أحمد أمين (١) أشبه شيء بحالتها في الجاهلية ،
كل قبيلة تسكن موضعا يرأسها أمير منها هذا أمير فى الاحساء وهذا أمير
فى العسير ؟ وهؤلاء أمراء نجد ؟ ولا علاقة بين الأمير والأمير الا علاقة
الخصومة غالبا ثم تتوزعها أيضا الخصومة بين البدو والحضر ، فمن قدر
من البدو على خطف شيء من الحضر فعل ؟ ومن قدر من الحضر على بدوى .
انتقم ؟ والطرق غير مأمونة والسلب والنهب على أشدهما !!؟

هذه الفوضى الاجتماعية مع ما أقضنا فيه من الفوضى الدينية جعلتا ابن
عبد الوهاب يفكر فى اقاذا المسلمين أفرادا وجماعات فلا بد من أن تحرر عقائدهم
الاسلامية تحررا يرجع بها الى السنة والكتاب ؟ ولا بد أن يعيش الأفراد
والجماعات آمنين على أرواحهم أن يتخطفهم الناس فلا سلب ولا اغتيال ولا بد
قبل ذلك كله أن تمزق هذه الكتب الوثنية التى تمتلئ بالحرافات والاضاليل ؟
ولن يكون ذلك بغير معاونة سلطان قاهر ؟ يملك السيف والقوة ؟ ويؤمن
بالتجديد والنهوض !!!

وقد وجد فى الأمير محمد بن سعود ضائته المنشودة فتعاهد الرجلان
على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع ؟ ونشر الدعوة فى جميع
الجزيرة العربية باللسان والمنطق أولا ثم بالقوة الصارمة ثانيا وقد نجحت
الدعوة السلفية الى الكتاب والسنة نجاحا باهرا ولولا وقوف الدولة
العثمانية فى وجهها بالمدافع والجيوش والاساطيل لأهذنت المسلمين مما ران
عليهم من العجز والجمود فى وقت قريب !!! ولكنها برغم فشلها الحربى قد
جذبت اليها الانظار من كل مكان وظلت تعاليمها تنتقل الى عصرنا هذا ؟
فلها فى كل وطن أشباع وأتباع .

(١) زعماء الإصلاح ص ٧

لقد قام في الهند زعيم وهابى هو السيد أحمد لقن الدعوة السلفية
فى مهدها بالحجاز حين حج البيت ورجع الى بلاده فبث تعاليمها وجمع
حوله الأنصار ممن تحرروا من التقليد والجمود، كما زار الامام السنوسى
مكة ثم رجع الى الجزائر تقدمه أفكاره الوهابية فدعا الى التجديد
والتحير ...

أما اليمن فقد سعد بأكبر علمائه الامام الشوكانى فكان داعية الوهابيين
الاول وفى مصر قام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا بمحاربة الجمود
الفكرى وفتح ميادين الاجتهاد ومات الاستاذ الامام بعد أن خطا خطوات
تقدمية فى الإصلاح ؛ وفتح باب الاجتهاد فتحا لا جمود فيه ... فرأينا
تلاميذه يقتدون به ؛ فلا يتقيدون بمذهب معين ولمن شاء أن يرجع الى فتاوى
المنار من ناحية وآراء الأستاذ الأكبر عبد المجيد سليم من ناحية أخرى
فسيجد التقارب التام بين المذاهب الاسلامية وانهتحرر المطلق من التقليد
الجامد وتلك ثمرة ابن عبد الوهاب !!!

على أننا نلاحظ تأثير ابن تيمية المباشر فى هذا الاتجاه فقد طبعت دار
المنار وغيرها مؤلفات الرجل وعلقت عليها ودفعت بها الى المشتغلين بالفقه
ففتحت فتحها المبين . وكان لها من الذبوع والقبول ما عجل بشرتها
المشتهة .

واذن فقد أثر ابن تيمية بمؤلفاته تأثيرا مباشرا فى النهضة الفكرية
بالقرن العشرين كما أثر عن طريق الدعوة الوهابية تأثيرا غير مباشر
بالتحرر الفكرى الناهض والخلاص من الحرافات الضالة والرجوع
بالأحكام الدينية الى كتاب الله وسنة الرسول !! وبعد ؛ أفليس ابن عبد الوهاب
ثمرة من ثمار ابن تيمية !! ثم أليس ابن تيمية ثمرة من ثمار أحمد بن
حنبل ، فيه يبدأ الفضل واليه يعود !!

نظرات

كشفنا فى الفصول السابقة عن ورع الامام وزهده ؛ كما جلونا نباته الرائع وصبره العجيب جلاء يجعله موضع القدوة والاسوة ثم خصصنا فقهه وحديثه ببعض انشرح والتفسير لتكمل لنا صورة واضحة عن حياته الرفيعة بناحيتهما الخلقية والفكرية !! ونحن فى جميع ما كتبناه معجبون بمقدرون !

ولكن اعجابنا الزائد يدفعنا أن نسجل - فى هذه الصفحات - ما قد يختلف عليه من وجهات النظر ولا نعى بذلك أننا نرى الحق الجازم فيما نراه ونرى غير الحق فيما سلك ؛ ولكننا نجد فى حياة كل عظيم موضعاً للخلاف صغيراً كان أم كبيراً وأحمد أحد هؤلاء العظماء الذين أثروا فى مجتمعهم ودينهم أشد التأثير فلا مناص من تحليل آرائه وتفسير نوازهه ولا مناص اذن من الاتفاق فى ناحية والاختلاف فى ناحية أخرى - شأنه فى ذلك شأن كل امام خطير !!

لقد أعجبنا بالأمام اعجاباً كبيراً ظهر للقارىء فيما قرأ ... ويدفعنا هذا الاعجاب المفرط أن نتبع مواقفه وآرائه فى حيدة تامة وانصاف عادل.. واذا كنا قد أيدناه فى أكثر ما صنع فنحن هنا نعارضه فى أشياء هامة قد نجد من يشاركنا فى معارضتها وقد لانجد ، ونحن نبسطها هنا فى كتاب يضم تاريخه راجين أن نصل الى الحق فى وقت قريب !!!

أول هذه الاشياء موقفه من الجدل والمناظرة فقد كره النقاش ودم أصحابه ؛ ووجهته فى ذلك أنه لم يكن فى زمن الرسول والنصحية فأحرى به ألا يكون الآن ، ونحن لانرى معه فلكل عصر ثقافته ومميزاته وقد أصبح النقاش أداة الاقناع فى الزمن العباسى ، ولا يمكن لصاحب الراى من الفقهاء أن يعلن حجته دون نقاش فعلى أرباب المذاهب الدينية والفكرية أن يدرسوا مجتمعاتهم دراسة فاحصة ؛ ثم يسلحون ازامها بما يضمن لآرائهم

الظفر والانتصار !!! فنحن الآن فى العصر الحديث - مثلا - نجد النقاش الفكرى حتما مفروضا أمام المذاهب الدينية والاجتماعية والسياسية الوافدة من الغرب !!! فاذا تراجع رجل الدين عن دراسة ما حوله والرد عليه بأبلغ نقاش وأوضح حجاج ؛ فقد خسر معركة الاصلاح ؛ وكذلك الشأن فى العصر العباسى تماما بتمام ؛ واذا لم يكن الجدل سبيل السلف من الصحابة ؛ فقد كان سبيل انشاقى رضى الله عنه وهو أستاذ أحمد وموجهه وكثيرا ما سمعه ابن حنبل يناظر ويطاقن ويدفع الرأى بالرأى والحجة بالحجة ؟! حتى قهر أعداءه ونشر مذهبه أفلا كان له فى ذلك قدوة تامة وحجة بالغة !! ثم ها هو ذا تلميذه ابن تيمية يأتى بعد أربعة قرون فيكون الجدل سبيله وعدته ؛ فلولا مجالس نقاشه ومعارك حجاجه ؛ لكان كغيره من فقهاء عصره ولكنه قام بثورته التجديدية سالكا وجه الاقناع والحجاج فعلى وفاز ؛ الحق أن الامام أحمد كان - كقائد جماعة كبيرة محتاجا الى أن يتخذ من النقاش سلاحا ينتصر به !! وقد أبنا فى بعض الفصول أسباب كراهيته للنقاش ؛ ومهما تكن هذه الاسباب مقبولة فى منهجه ومنحاه فقد كان من الخير أن يناقش الامام ويطاقن ؛ ولعل الامام قد انتصر فى فكرته بتقواه وورعه وثباته وصبره ؛ أكثر مما انتصر بعقله ولسانه !!! ونحن نعتقد أن تكوينه النفسى والعقلى لم يؤهله لذلك ؛ وكل ميسر لما خلق له !!!

ثانيا - نظرة الى الصحابة رضى الله عنهم فقد عد « كل من صاحب الرسول سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة - صحابيا كبيرا وجعله بهذه الصفة التى قد تستمر - ساعة واحدة أفضل من التابعين ولو عملوا كل الخير ؛ وقد حرم أن يوجه نقد ما الى أحدهم اذ أنهم فى منزلة عالية لاتجيز لأحد أن ينقد أو يؤاخذ ، ويستدل على ذلك بحديث « خير القرون » وسواء وأحمد بذلك يخلع عليهم عصمة ليست لهم واذا كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قد آخذه ربه على بعض ما تصرف فيه ؛ فقال « عفا الله عنك لم أذنت لهم » وقال وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت تلقى كلا انها تذكرة .. اذا كان للرسول بعض ما يؤاخذ عليه أفلا يكون المصحابى هنات تكون موضع الملامة والمؤاخذة ؛ فنشرح آراؤه ؛ وتتقد مواقفهم ..

هذا أمر بديهي لدى من يعلمون ان البشر أيا كانوا يخطئون ويهيون .
وقد سبق أن أفضت في توضيح ذلك ببحث اجتزىء منه بهذه الفقرات (١)
ومن الخير أن نبدأ بتحديد معنى الصحابي ؟ وهو في أبسط حدوده
يطلق على كل انسان حصلت له رؤية الرسول ومجالسته ؛ فجميع من
سعدوا بمشاهدته صلى الله عليه وسلم ، في حياته بعد الاسلام صحابة يشرفون
بهذه الصفة المباركة ؛ حتى عبد الله بن أبي ؛ رأس النفاق بالمدينة فقد قال
الرسول .. لمن هم بقتله .. معاذ الله أن يتحدث الناس ان محمدا يقتل
أصحابه ؛ فبعد الله من أصحاب محمد ؛ كما ينطق الحديث فليت شعري
أيطلق الحديث القائل «لا تسبوا أصحابي» على جميع من ظفروا بالصحبة ،
أم يخص من باعوا أرواحهم وأموالهم لله ؛ من المؤمنين الصادقين ؛ لا بد أن
تكون الطائفة الأخيرة هي المقصودة دون تردد ؛ فكل من تمسك بأخلاق
القرآن من أصحاب الرسول وشهد تاريخه بمروءته وصدقه ، فهو موضع
انتجلة والتبجيل ؛ ولا يجوز لمسلم يدين بالاسلام أن ينتقصه في شيء ؛ وكل
من حامت الشبهات فوق تاريخه فهو موضع الملامة والنقد ؛ لأن الناس
سواسية أمام الاسلام ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ..

ومعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا من الدين والجهاد
بمنزلة واحدة ، ففهم من أسلم في فجر الدعوة منذ أعلنها الرسول ، وقطع
السنوات المتابعة في الجهاد والجلاد ؛ وفهم من أسلم قبيل الفتح أو بعده
والسيف وصلت على رأسه ، وفهم من بذل الكثير من الدم والمال وادخر
القليل ؛ وفهم من تقاعس ولم يبذل شيئا من دمه أو ماله ؛ ومن الظلم البين
أن نرتفع بهؤلاء جميعا الى منزلة واحدة ، فيكونوا فوق النقد والتصويت ،
بل على التاريخ أن يهيء لكل انسان منزلته ؛ وفق ما أسلف من أعمال ؛
والله عز وجل يقول (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر
والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم - فضل الله المجاهدين
بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ،
وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) .

وإذا كان بعض العلماء يرى أنه لا يجوز لأحد من الناس أن يجعل الخطأ ذريعة إلى تعدد المخطئين ، فماذا يفعل في الصحابة وقد أحلوا لأنفسهم ما حرمه عليهم الآن ، فخطأ بعضهم بعضا وطعن فريق منهم على فريق آخر يناوئه أفكئون بذلك قد خالفوا قول الرسول « لا تسبوا أصحابي » أم عرفوا ان الصحبة وحدها لا تمنع الملام والنقد ثم ان هناك فرقا بين السب والنقد ، فالأول تشهير لا يقوم على دليل والثاني تخطئة تنهض على برهان ، وما يوجه الى الصحابة لا يخرج من النقد الى السباب . . .

هذا كلام قلته قديما وأعيده ، ليعلم الناس أننا لسنا معه حين يجعل الصحبة فوق النقد اذ أن العصمة لله وحده ؟ ونعتقد أن ورعه الصادق قد جعله ينحو هذا النحو ، اذ يفضل أن نغمض الطرف عما سلف متجهين الى الحاضر لا الى الماضي ؟! . . . ولكن ماذا نصنع ؟ ونحن لا نقدر أن ننسى الماضي فهو يتلى ويدرس في كل زمان ومكان ؟ أفلا يأخذ كل انسان مكانه المناسب وموضعه المعقول . . .

ويجربنا هذا الحديث الى رأى الامام فى ترتيب الصحابة « فهو يفضل أبا بكر فمصر فعثمان ثم يأتي بعد ذلك أصحاب الشورى الخمسة على والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد وكلهم امام » . . .

ووجهته فى كل ذلك أن الصحابة قد اختاروا أبا بكر فهو أفضل الجميع ثم اختاروا عمر بمشورة أبى بكر فهو أفضل الجميع ؛ عدا أبا بكر ثم اختاروا عثمان فهو أفضل الجميع عدا عمر وأبا بكر ؛ ثم انعقدت الشورى فى الخمسة الباقين فهم فى مرتبة واحدة ؛ ونحن لانرى هذا الترتيب . . . اذ أننا لانجعل اختيار الصحابة كل شىء . . .

بل ننظر الى تاريخ كل صحابى وكفاحه ونضاله . . . ثم نحكم عليه ؛ وقد كان الامام أبو حنيفة يرى الترتيب هكذا . . .

(أبو بكر فمصر فعلى) وهو ما نراه اذ أننا نقدر لكل انسان ما قدم فى خدمة الاسلام واعلائه ثم نحكم . . . أما اختيار الصحابة فأمر شخصى يرجع الى اعتبارات ملائمة لامت فى بعضها الى الكفاح السالف والموهبة الشخصية

وعلى كل فنحن فى هذه الناحية مع أبى حنيفة لا مع أحمد .. ولا يظن أحد أننا نجادل فى أمر قد انتهى ، ولكننا نجد نظرة الاسلام ، الى الأشخاص فلا نقيم وزنا لغير العمل والتقوى .. فمهما أجمع فريق من الناس على أمر فلا بد من إعادة النظر فيه وقياسه بمقياس الاسلام .. وهو مقياس يجعل الناس سواسية كأسنان المشط ثم يرتفع بصاحب الجهاد المخلص والكفاح الدؤوب .. وبهذا التجديد يستطيع كل فرد فى دينا الاسلام أن يرتفع باخلاصه وكفاحه عن غيره من الودعين الماكين ..

ولكل مجتهد نصيب كما يقال ..

ومما يختلف فيه مع الامام ونقف بازائه موقف المعارضة والحجاج ، مارآه من طاعة الامام المتغلب وان كان فاجرا فهو يقول فى احدى رسائله (السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين ابر والفاجر ، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة ..

ومن خرج على امام من أئمة المسلمين وكان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأى وجه كان ، بالرضا أو بالقبلة .. فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين فان مات الخارج عليه مات مية جاهلية (١) .. أقول اننا نخالف الامام فى ذلك ونعارضه ونستدل بسيد الصحابة أبى بكر وقد جعله الصحابى الأول فى ميزانه ، فقد قال فى أول خطبة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة ..

(أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمنى على حق فأعينونى وان رأيتمنى على باطل فقومونى أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت فلا طاعة لى عليكم أقول هذا واستغفر الله لى ولكم ..) كما نستدل بقول عمر وهو الصحابى الثانى فى رأى أحمد ..

«أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فصاح أحد المسمعين لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .. فقال عمر .. الحمد لله الذى جعل فى الرعية من يقوم أعوجاج أمير المؤمنين .. ،

فأبو بكر يعلنها صريحة واضحة فيقول ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله
فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم ، والامام الفاجر عاص الله فلا طاعة له ويجب
الخروج عليه وضعا للأمر في نصابه لأن صلاح الراعى صلاح للرعية
وفساد الراعى فساد للرعية واهلاك ..

وعمر الفاروق يدعو صريحا على الملأ : من رأى في اعوجاجا فيقومه
فلا يجد مجاملة من احد ، ولكنه يسمع اعرابيا من افناء الناس يقول (والله
لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا) واذ ذاك يصبح عمر شاكرا لله أن
رزق الرعية من يدفعها الى امتشاق السيوف في وجه الحاكم الموج دون تهاون
أو استخفاف ..

فلماذا بعد ذلك نسكت عن الامام الفاجر ونميل الى الاغضاء ..

يخيل الى ان الامام أحمد وقد عاصر عهد المأمون والأمين والمعتمد
والواثق والمتوكل ورأى الثورات تشب في كل مكان فتأتى على الأبرياء
والآمنين وتمضى عاصفة بالضحايا المديدين ، حيث تسج الدماء ، وتتطاير
الأشلاء المتناثرة .. ثم تنتهى الى الحمود والفناء دون تغيير جوهرى أو تعديل
سياسى .. يخيل الى أن الامام أحمد رأى ذلك فأزعج احساسه وأقلق
خاطره .. ألم يشاهد فتنة الأئمين والمأمون فعرف كيف استهدفت بغداد
الآمنة لأخطر الزعازع وأعنف الأهوال ، فأصبحت بين ساعة وساعة
لهيبا يشتعل وجحيما يتضرم ، ثم سكنت الثائرة ، وراح الأئمين وجاء المأمون
فلم ينصف اهل السنة وأوقد جذوة الاضطهاد فاسطلى بنارها الآمنون وفي
مقدمتهم أحمد ورفقاؤه ، ممن تمسكوا باعتقادهم وآثروا ما يروون صحته ..
فقيم كانت هذه الثورة ؟ والى أى غاية ذهبت بها الأقدار .. ؟

ثم هؤلاء الثوار في مصر وخراسان واليمن وفارس قد أعلنوا
انفصالهم ونادوا بسقوط أمير المؤمنين في بغداد ، فماذا كانت النتيجة

لقد أرسلت الجيوش المتلاحقة اليهم وسالت الدماء ودمرت مدن وخربت
منازل .. وبقي الخليفة بعد ذلك كله حاكما نافذ الكلمة مطاع الراى ..
فهل أزعجته هذه الثورات ..

لعل هذه وجهة أحد، ولكننا نراه متعارض مع قدسية الاسلام وعدالته
 وإذا كان الامام مالك يرى جواز امامة المفضل فليس معنى ذلك أنه يوافق
 أحمد لأننا نفرق بين فاجر ومفضل ، فالمفضل كما نعتقد هو الذى يكون
 غيره أكفأ منه فقط مع صلاحه وعدله ، أما الفاجر فهو الذى خالف شريعة
 الله ، وجاهر بانتهاك محارمه ، وذلك مالا تجوز طاعته عند مالك وسواء ..
 وقد كان أبو حنيفة صريحا حين أعلن عدم الخضوع للظلمة وأيد العلويين
 دون العباسيين ، فهو بذلك يسير فى ضوء الاسلام .. وينهج منهج
 أبى بكر وعمر ..

وما موقف سعيد بن جبير فقيه المدينة من الحجاج بعيد .. فهم جميعا
 يجمعون على محاربة الفاجر واسقاطه من سمائه اذ أن الناس على دين
 ملوكهم ، والحق أحق أن يتبع .. هذه ثلاثة أمور نعارض فيها أحمد وغير
 كثير أن نخالف مصلحا كبيرا وفقها مشرعا قضى عمرا مديدا فى الفتوى
 والتشريع فى ثلاثة أمور فلا بد اذن من الخلاف . ولا نكاد نجد مؤرخا كتب
 عن بطل سياسى أو فكرى دون أن يختلف معه فى تحليل موقف أو تفسير
 رأى فلعل وجهته ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة ..

وأعجب ما نلاحظه أن الامام أحمد ذلك الرقيق المرفف الذى ينفر من
 وسائل البطش والقوة ويرى الخضوع للمتقلب الفاجر حقنا للدماء وصيانة
 للأرواح قد خلف من بعده خلف يتسمون اليه ، ولكنهم يتخذون من العنف
 والقوة وسيلة لتحقيق آرائهم واشباع رغباتهم ، فقد علا صوت الحنابلة ببغداد
 بعد تولية المتوكل علوا مدويا ، وأصبحوا وهم جمهرة العامة يتدخلون فى
 كل شئ ويقفون كل مرصد ومنهم غلاة متمتون يسيثون الى مذهبهم دون
 بصر أو تفكير .. ولو أدركوا أحمد لبرىء من فظاظتهم الغالبة ، وأباح
 حارمهم وغالوا فيه من الأمور بلا هدى ولا كتاب منير ..

هؤلاء الغلاة قد اشتطوا فى محاربة خصومهم واتخذوا من انقوة
 والبطش عدة مؤذية وحسبك أن تعلم أن الامام المفسر المؤرخ الفقيه ابن جرير
 الطبرى ذكر فى بعض كتبه عن أحمد انه كان محدثا ولم يكن فقيها ..
 فأفندى ما حدث له؟! لقد تجمهر الحنابلة ومنعوا الناس من الدخول الى مجلسه

ورموا بمحابرهم فطلخت ثوبه ووجهه ويديه .. فاضطر إلى ملازمة داره ، خوفاً على نفسه ، فرموا بالحجارة حتى ملأت الطريق وعلم الوالى ، فركب صاحب الشرطة ومعه ألوف الجند نئع العامة ورفع الحجارة ، فاذا كان هذا المسلك الباطش مسلك الخنايلة ازاء مفسر فقيه مؤرخ امام .. فكيف يكون مسلكهم مع مخالفيهم من العامة وذوى المذاهب المخالفة وهم بعد أتباع امام ينفر من البطش ويدعو الى السكينة والهدوء .. رحم الله أحمد ، فقد كان لاينسب نفسه الى الفقه تواضعا واستكانة ؛ ولو سمع مقالته عنه الطبرى لوافق وحبد ، ولكن التاريخ لايقبل تواضعه التبيل مهما بالغ فيه فهو فى حكمه العادل ، فقيه حجة ، وعالم مكين وقد خالفناه فيما نرى وجه الخلاف فيه واضحا غير مطموس من الآراء العامة فى السياسة ومنازل الناس .

أما آراؤه الفقهية - فى الفروع - فلسنا بأهل للحكم عليها ومفاضلتها بغيرها من الأقوال ، فللمقارنات بين المذاهب التشريعية فقهاء متخصصون وعلماء متبحرون وقد وضعوا عشرات الكتب المبسطة الشافية فى باب الموازنة والترجيح ، فاليها يرجع من يريد .. والرجل بعد كغيره من الأئمة له حجة الواضحة واستنباطه القويم ، ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ..

مقارنة فقهية

في الميزان

لم تكن الأحكام الشرعية في مختلف فروع الفقه الاسلامي وقفا على مجهود فرد معين ، تنسب اليه ، فكل امام من الأئمة -رضوان الله عليهم - قد أدلى بدلوه ، وأسهم بنصيبه حتى ذخرت مكتبة الفقه بمئات المؤلفات ما بين شرح واستنباط وتقعيد وتدليل !! !! بحيث يجوز لك أن تتصور التشريع الفقهي صرحا فاهضا تتابع القائلون على بنائه من لدن محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وكل بان يترك أثره في الصرح ، فهناك من يضع لبنات ، وهناك من يقيم سطرا بأكمله ، وما زالت السنوات تتابع حتى نهض البناء وشمخت ذراه !!!

وانت تبحث عن هؤلاء الجنود المخلصين فتجد نمطا رائعا من عشاق المعرفة وطلاب الحقيقة - جيلا بعد جيل - أخذت تدفع بهم الأيام المتعاقبة - باحثا خلف باحث - حتى ليعز عليك أن تزن عمل كل فقيه ممن أتت عليهم الاحقاب وأن تعرف في هذا الطوفان المزد كفاف كل فرد ونشاطه على حدة ... ذلك جهد لن يصل اليه باحث منقب مهما قرأ وتأمل !! !! ولكن هتاك - من بين هؤلاء - أعلاما يارزين ضمن لنا التاريخ كثيرا من جهودهم الموفقة في ميدان الفقه ، وأصبحوا بما قدموه للشريعة الاسلامية معارف مشتمرة وكواكب لامعة ، وتآلق بالضوء ، وتشع بالهداية ولن يكون في ذكرهم الآن بخس لغيرهم فقد تضافرت أسباب خاصة على التنويه بأثارهم والاشادة بمذاهبهم ونخص الآن من بينهم أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد ، وقد يكون في دنيا الفقه الاسلامي من رجحهم كفاية وافتاء وقياسا ، ولكن الخطوة السالفة في الذبوع والاشتهار قد تمت

لهؤلاء !! !! وسألم برسالاتهم الفقهية إمام الموجز المتمجل ، لنعرف هل كانوا يسرون في اتجاه مقارب أو أنهم كانوا يتقاربون ويتباعدون ولبنين كيف عاد اختلافهم المذهبي باليسر البالغ والخصب العميم ، فرفع الحرج ، وبعد الضيق !! !!

كان الامام ابوحنيفة أسبق رفاقه في الزمن وهو وإن عاصر مالكا . الا انه قد سبقه في الميلاد والوفاة ... وقد تربى تربية عملية فتاجر وزاجم وعرف أحوال الناس وشئونهم في التعامل والكسب . معرفة الزميل المشارك ، فأفاده ذلك بصرا في الرأي وصدقا في الخبرة . ثم شاعت له ظروفه أن ينشأ في العراق حيث الرخاء والعمران وازدهار الحضارة وتنوع أسباب المدنية واختلاط الناس من كل ناحية وكل ذلك يحدث من الأسئلة في الفقه والاستفتاء في الحكم مالا بد منه لدنيا الناس !! !!

والرجل فوق مزاولته للتجارة فقيه متمكن وعالم متطلع !! !! وقد اتجه الى الفقه عن طريق الجدل في مسائل الكلام !! !! فكان يتكلم في الصفات والافعال ويناقش طوائف المعتزلة وذوى النحل الكلامية مناقشة اللسن ذى المقدرة الفائقة في الحجاج والحوار ثم بدا له أن يترك هذا الميدان النظري الى الفقه العملي ويعمل ذلك . بأن الحاجة اليه ماسة والسؤال عنه ملح والاجابة عليه واجبة ، فهو أجدر بالبحث والاهتمام ، وقد ساعدته ملكته الخاصة على الاستنباط والتعليل ، فكانت تأتي اليه المسألة الجديدة في مضمار البيوع والمعاملات ، فلا يجد لها نصا في محكم الكتاب ، أو فتوى في صحيح السنة فيقرن الشيء بالشيء ويقيس النظر بالنظر ، ثم يدافع عن فتواه دفاع المتمكن المثبت . وقد تجمع حوله تلاميذ بررة عرفوا بقياسه ، وفهموا منطق فكانوا جميعا أصحاب الرأي في الاسلام ، لهم وجهتهم المعروفة بقياسهم الصريح !

ونستطيع أن نحدد رسالة أبي حنيفة في ايجاز فنقول انه اكتسب من حياته التجارية الاولى خبرة يقظة بشئون الناس في عالم متمدين

مزدهر من ناحية ، كما أنه بنشأته الجدلية في ميدان الكلام قد حذق أساليب الاستدلال العقلي من ناحية ثانية ، ثم تفهم أسرار الشريعة وعرف وجوه الاختلاف فقال بالرأى وفتح في ميدان الفقه الاسلامى طرعا فسيحة عادت عليه بالثروة والرخاء ... فرسالته استنباطية قياسية تقرن المجهول بالمعلوم وتلبى حاجة العصر تلبية بصيرة ذات وعى وتدبير ..

أما الامام مالك فقد نشأ بالمدينة ، فحفظ حديث رسول الله عن أهلها واطلع على مالم يطلع عليه أبوحنيفة من الآثار النبوية وورث علم الجماعة من التابعين يعصمون بالسنة ولا يقولون بالرأى فنهج نهجهم وأخذ يفتى فيما يعرض عليه من المسائل بكتاب الله وسنة رسوله ، وقد أعانه على ذلك أن المدينة لم تكن واسعة الحضارة ، ولم تجد بها من وسائل العيش وأفانين المعاملة مايمكن أن يتعسر حكمه على مالك ... فصادف لديه من ذخيرة رسول الله مددا موفورا أسعفه في أكثر مايريد دون تلكؤ أو افحام !

على أن الامام مالكا كان صادق النية حسن التواضع فكان لايجزم عن أن يقول اذا سئل عن شيء ولم يعرفه ... « لأدرى » .. وقد أخذ عنه تلاميذه مذهبه فجعلوا الحديث رائدهم وكانوا لايلجئون الى الاجتهاد فيما ورد فيه النص ولو ضعيفا ، فاذا امتنع النص اتجهوا الى القياس وهناك نادرة تقول ان الامام مالكا كان يقول اذا سئل ولم يعلم : لا أدرى نصف العلم ، فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال اذن لأدرى لأدرى كل العلم ، وسواء كانت هذه النادرة صحيحة أم مختلفة فانها توضح مذهب الامامين تمام التوضيح فمالك فقيه متحفظ يتمسك بالنصوص ويتواضع فيقول « لا أدرى » وأبوحنيفة فقيه متحرر يقول بالرأى ويقرن الشبه بالشبه والنظير بالنظير ،

على أن هناك تنازعا بين مالك وأبي حنيفة في تبويب فصول الفقه على النحو المعروف في كتب الشريعة ، ففريق يقول .. ان أبا حنيفة هو صاحب هذا التبويب لانه دون كتبها فقهية بدئت بالطهارة

فالصلاة فالزكاة فالصوم فالحج فاليوم فالموارث ... وهكذا ثم ضاعت هذه الكتب دون أن يكتب لها الخلود ، وفريق آخر يقول ان صاحب هذا التبويب هو مالك رضى الله عنه لانه التزم هذا المنهج في تدوين الموطأ وهو كتاب متداول مشهور وقد قال الاستاذ الاكبر مصطفى عبد الرازق في كتابه (١) « ان الحكم في هذه المسألة عسير الاثبات لان أبا حنيفة ومالكاً كانا متعاصرين فلا يعلم أيهما بدأ » وأنا أرى أن الحكم في ذلك غير عسير فمالك صاحب هذا الترتيب في موطئه ولو أن أبا حنيفة قد ألف كتابا نهج فيه هذا النهج ، مآجاز أن يضع وله تلاميذ عديدون وقد كانوا قضاة الدولة وأرباب النفوذ فيها ، وكثيرا ما أشادوا بأراء امامهم في مؤلفاتهم ، فكيف يضع كتاب مؤلف لمذهبه هذه الشهرة ، ولديه هؤلاء التلاميذ !! !! !! واذا كانت آراؤه الشفوية قد حفظت وتواترت أفيضع له مؤلف محرر مشهور !! ؟

اذن فرسالة مالك في الفقه الاسلامي هي المحافظة على النصوص النبوية والافتاء بها وعدم التوسع في القياس الاما تعينت فيه الحاجة وتعذر فيه النص فهو رجل محدث فقيه كما أننا نجزم أنه وضع الخطة الاولى في تبويب الفقه وفق نظامه المعبود ، فكان كتابه الموطأ أول سفر تداوله الفقهاء ، ومع أنه أحاديث صريحة الا أن تبويبه وترتيبه فقهي صريح !! ...

ثم جاء الامام الشافعي والخلاف بين أصحاب مالك وأبي حنيفة على أشده فاتصر لمالك أستاذه وجالده عن مذهبه وكان الامام الشافعي بنشأته ومواهبه أهلاً لأن يحدث جديداً في دنيا التشريع ، فالرجل كان مطالعاً على الادب والشعر اطلاع المتخصصين وقد درس ثقافة عصره ، أصيلة ومترجمة ، دراسة الباحث الولوع وكان يحذق أساليب الطب والتنجيم — على بعدها عن علوم الشريعة واللسان — حذقاً مبيناً ، وله بالفروسية والرماية دراية واسعة وشفف حبيب ،

فالشافعى متعدد الثقافة واسع العقل ثم شاءت له طبيعته أن يتضلّع فى الفقه تضلعا يستند الى ثقافة شاملة وبصر نقاذ ، وصاحب هذه الموهبة الرائعة لا يكتفى بمذهب مالك أو يقتصر على مذهب أبى حنيفة ، فمع أنه قارب بين المذهبين فى مذهب ثالث يجمع مزاياهما المتفرقة فقد واصل التأمل حتى اهتدى الى وضع قانون كلى لأحكام الفقه هو مانسميه بعلم الاصول فأصبحت الامور الجزئية على يديه تندرج فى أحكام كلية ، وقد كشف عن وسائل الاستنباط وعلل الترجيح ومسائل القياس وأوجه الرد ، وبذلك تمت للفقه فلسفته الحقيقية وأصبح علما يستند الى قواعد متينة لا يعصف بها اعتراض واھن ، أو نص مقتعل ، أو شبهة داحضة . وبوضع علم الأصول أكمل للشافعى أكبر مجهود قام به فقيه دؤوب ...

وقد نظر بعض المفرضين الى سلامة الاستنباط وصحة القياس فى الفقه الاسلامى فحسبوه مأخوذا عن الفقه الرومانى ، ولو درسوا كتاب الأم للشافعى لعلموا كيف كان الفقه الاسلامى أصيلا فى ميّته عريقا فى ملته !! واذا كانت أصوله تجرى على سنن منطقى من البرهان والدليل وتتسع لما تتسع له القواعد القوية من العموم والشمول . فذلك لا لأنه متأثر بالفقه الرومانى ولكن لأنه وجد رجالا كالشافعى رسموا له الخطة المحكمة وشقوا له المجرى الفسيح ...

هذه رسالة الشافعى فما رسالة تلميذه أحمد ؟

لقد عرفنا فيما سبق ان أحمد قد تتلمذ على الشافعى وقد علم على يده قواعد الاستنباط وعلل الاحكام وجمعت بينهما آصرة قوية من الود والاحترام أكدھا هيام الرجلين بالحديث النبوى والأتصار للأثر على رأى فى أكثر المسائل ولكن الشافعى لا يستمر فى طريقه مدافعا عن مالك ، بل يخالفه فى كثير من أحكامه ثم يضع مذهبها جديدا فى مصر ويسأل أحمد نفسه : ماذا يصنع ؟ أيتعبد بآراء الشافعى وقد لس فقهه ونبوغه أم يهدف الى الحديث مباشرة فيجمله رائده وطبعى ان يتغلب عليه الميل الاخير فينشط لجمع الاحاديث

من مختلف البقاع ويقدم لطلاب الفقه مسنده اماما يرجعون اليه في التشريع ثم يأخذ في اصدار احكاما مشبعة بروح الحديث فيخلف ثروة فقهية متازة ، لها دعائمها الثابتة ، وأساسها المكين وبذلك قرب أحمد من مالك أكثر من قربيه الى الشافعي وقد سئل الامام احمد ، حديث من تأخذ؟ ورأى من تنظر ؟!

« فقال حديث مالك ورأى مالك (١) » ولولا اهتمام مالك بالحديث واتجاهه الى الافتاء في ضوءه ما قرب أحمد منه !!

ونعتقد ان أحمد قد ساعد بهذه الثروة النبوية في المسند مساعدة كبيرة في خصوبة الفقه وازدهاره ، وقد يظن بعض الناس أن جمع هذه الآثار محاربة مقنعة للقياس ، وليس الامر كذلك ، ان من المسلم به أنه اذا كثرت النصوص كثر مجال الاستنباط والقياس وتعددت رواقد التعليل والتشريع فبل ان يكون لديك مجموعة صغيرة من الأحاديث - كمجموعة الموطأ مثلاً - تقيس عليها دون غيرها فقد أوجد لك احمد مجموعة كبيرة ، وفتح بذلك - قصد أم لم يقصد - ميدان القياس عند الحاجة اليه ، هذا الى ان وجود هذه المجموعة الكبيرة : آثارا وفتاوى ، يمنح الشجاعة الفائقة من يريد ان يتصدر للافتاء فهو يملك بها مفاتيح كثيرة يديرها في شتى الابواب كما يشاء ، واذا ذاك تنفتح المغاليق ، فرسالة احمد في الفقه الاسلامي امتداد لرسالة مالك على وجه متسع فياح ، وكان لا بد لهذه الرسالة أن تنتشر في بغداد - بوجه خاص - فيعرف أهلها كنوز السنة الموفورة بعد أن كادت هذه الكنوز تصبح على يد بعض الأحناف موضع الاتهام !!

هذه رسالات الأئمة الاربعة ، نبسطها لنقول للناس ان هؤلاء الرجال وأمثالهم قد نفخوا التشريع الاسلامي متفقين ومختلفين فهم فيما اتفقوا عليه قد أصدروا أحكاما لا تقبل النقض فمصموا من

الشك وجزموا باليقين وهم فيما اختلفوا فيه قد أوسعوا المجال لرواد البحث الفقهي ، كى يقطف كل ناظر ما يريد ، دون حرج أو تأثم ولن يكون الخلاف فى رأى مابين امام وامام مدعاة للتعصب من تابعيه ، فالخلاف العلمى أمر طبيعى ، يصاحب العلم فى جميع أدواره ، وقد وجدنا أصحاب المذهب الواحد يختلفون فتجد مثلاً فى كتب الفقه قال : أبو حنيفة كذا ، وقال صاحباه كذا .. خلافاً له ، وتجد فى كتب الشافعية والزيدية والمالكية والحنابلة مثل ذلك وهذا فى المذهب الواحد فكيف لا يكون فى مذاهب مختلفة !!!

لقد كان من رحمة الله أن تختلف أقوال الأئمة باختلاف مارجح لديهم من الدليل ، وقد قال عمر بن عبد العزيز مايسرنى أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا لأنهم ان اتفقوا لم تكن رخصة !!! بل ان الفقيه قد يختلف مع نفسه فيقرر حكماً ثم يبدو له خلافه فيذهب الى غيره !!! وعليها أن تقرأ ثم تختار دون تقييد ، وقد رأينا فى كتب التاريخ الفقهي شهادات رائعة وتزكيات بارعة يزفها امام الى امام عن خبرة صادقة واخلاص عميق ...

قال مالك بن أنس اجتمعت مع أبى حنيفة وجلسنا أوقاتاً وكلمته فى مسائل كثيرة ... فما رأيت رجلاً أفقه منه ولا أغوص فى معنى أو حجة (١) ...

وقال الشافعى ... اذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما أحد أمن على من مالك بن أنس (٢) ...

وروى ان الشافعى وجد على باب مالك بعض الخيول من خراسان فقال له ما أحسنها فقال مالك ... « هى هدية لك يا أبا عبد الله » فقال الشافعى .. : دع لنفسك دابة تركبها فقال له أستحيى أن أطلباً تربة تضم رسول الله بحافر دابة (٣) ...

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٢١١

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٩

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢١

وقال أحمد بن حنبل ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة
 ألا وللشافعي عليه منة (١) وقال : الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء
 في اللغة واختلاف الناس والمعاني والفقه (٢) ونحن نقل هذه الأقوال
 لنعلم أن التنافس في تحصيل الفقه وتخريج بين الأئمة لم يكن
 كتنافس أرباب العلوم الدنيوية مدعاة للتحاسد والتطاحن . بل غمرته
 روح الاسلام ، فكانت تنافسا نبيلًا شريفًا يدعو إلى سبيل الله بالحكمة
 والموعظة الحسنة ويجادل بالتى هي أحسن

وقد نجد في صحف المتأخرين من الفقهاء بعض التطاول
 الشائن على مقام فقيه كبير تعصبا لفقيه آخر وأحرى بمن فعل
 ذلك أن يرجع إلى أقوال من تعصب له ثم يحو هراءه البغيض ،
 وليت شعري من أحق برعاية فضائل الاسلام وآدابه من كاتب ديني
 يبحث في حكم شرعى فيلزم الحيدة ويتجنب اللغو المقيت

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣١

غروب

يقول أحمد ... لو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لى.
ذكر ، وانى لأحب أن أعيش فى بعض تلك الشعاب بمكة حتى
لا أعرف (١) ولى ... بليت بالشهرة ، لو كانت نفسى فى يدى.
لأرسلتها (٢) ...

هذا حديث انسان متبرم بالنباهة وبعد الصيت ، فقد تناقلت.
الدنيا فى عهد المتوكل أحاديث صبره وشجاعته ، وجاءته وفود الآفاق
تترامى حول أعتابه وأفاض الناس فى علو منزلته وجلال مكاته
وقبوله عند ربه ، والامام حائر مضطرب يخلو الى نفسه فيتساءل ماذا
يتحدث به القوم ؟؟ وماذا يكون موقفى أمام الله اذا كنت لديه أقل.
مما يظنون ؟...

ثم ماذا أصنع اذا عرضت الصحف يوم القيامة ، فتطلع الناس
ولم يروا ما يزعمون !! ؟

أسئلة حائرة تختلج فى صدره فاذا لم يجد لها جوابا يقنع ، صاح
من أعماقه ليتنى كنت فى بعض الشعاب بمكة حتى لا أعرف !!! ثم
يعصره الألم فيقول ... لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها ...

وتمضى الأيام ولا تزداد الوفود الا ازدحاما فالطريق الى بيته
مزدحم غاص ورجال الدولة وأعيانها يتهافتون على لقائه فيرفض،
والخليفة المتوكل يود ان يراه فيتنعم ويعرض عليه ان يكون أستاذا
لولى العهد فيأبى ، وأحاديث محنته تذاع فتنتقل حمده فى الخافقين.
وتجيئه الوفود من أقصى المشرق بخراسان ومن أقصى المغرب.

(١) ترجمة أحمد للذهبي ص ٢٥

(٢) ترجمة أحمد للذهبي ص ٦٨

بالاندلس وكل يلوذ به خشع النفس منكسر الطرف .. وأحمد في
ذهول وألم ، فاذا حدثه محدث عن هتاف الناس بذكره ، قال في تأوه
تادم : أخشى أن يكون هذا استدراجا ، اذا عرف الرجل نفسه فما
ينفعه كلام الناس

وتأتيه أنباء عجيبة لو جاءت بعض ذوى الغرض في الحياة
والحظوة لدى الناس ، لأقامته وأقعدته ولكنه يتسممها في ألم ، ثم
يقول ، وقد تغير وجهه : هذا استدراج .. هذا استدراج ...

أثاه رجل فحدثه انه كان أمام العدو بطرسوس .وقد جمعت
الروم جموعها وتقدمت لغزو المسلمين فكان الجندى المسلم يأخذ
رمحه ويرمى باسم احمد فيصيب أفجع مقتل ، وقد تحصن قائد
الروم بدرعه وترسه وخوذته ، وعز على الرماة أن ينالوه فذكر
أحمد أحمد قبل أن يقذف فأصاب السهم من القائد مقتلا نافذا ...
فصاحت الجموع بالدعاء لابن خنبل في طرسوس !! أفترى ماذا
صنع أحمد ؟ انه بكى وتغير وجهه وقال ليت لا يكون استدراجا ...
وجاء رجل فقال : لقد كانت أمى مقعدة ، فدعوت الله لها وتيمنت
بأسك فذهب ما بها من مرض ، فقال احمد ، نحن أحوج الى ان
تدعو أمك الله لنا ، فمن نحن ؟ !

لقد ضاق الرجل بالنباهة وعدوها امتحانا رهيبا ، فكابد منها
هما ناصبا وأخذ يعتزل الناس ، فما يمر فى طريق ، أو يجلس الى قوم
وكم ود أن تدور به الارض فتقذف بمنزله فى فلاة موحشة منعزلة
وهناك يأمن مديح الناس ويأخذ فى صلاته ونسكه دون مشغلة
وارتياب !!

و ذات يوم جاءه ان تلميذه الوفى (بقى بن مخلد) مريض يعانى
سكرات الألم فى خان حقير بأطراف بغداد ، وتسمع الامام الخبر
فأقلقه ، فتلميذه أندلسى غريب لا أم فتحنو ولا ولد فيرعى ، واذن
فلابد من السعى اليه عملا بسنة رسول الله فى زيارة المريض ، فليخرج
من عزلته قليلا الى دنيا الناس ليرى ويسمع ماهناك !!!

يا لجلال أحمد !! يدعو المتوكل الى زيارته وقد أعد له
الموكب الحافل وأقام الزينات الباهرة فيعتذر ويعتل ، ويظل قابعا في
كسر بيته فلا يريم ثم يعلم ان طالب علم من تلاميذه يتأوه في مكان
حقير بأطراف المدينة ، فيسمى الى عيادته راجلا متجشما ، على وهن
في الجسم وثقل في الرأس ونفرة من لقاء الناس

وسار الامام في الطريق ببغداد ، فلم يبق مصل في مسجد ، ولا
تاجر في متجر ، ولا صانع في معمل الا ترك مافي يديه وسار في
الحشد الحاشد وراءه يتبع خطاه الواهنة مبتهج النفس فرحا بالمسير
خلف الامام ، ولم تبق عذراء في خدر ، ولا سيدة في منزل الا أطلت
برأسها لتنظر هذا الموج المحتشد من الناس تتراكب لوجه المزبدة ،
لجة فوق لجة ... وأحمد في مقدمته يسير في تواضع وخشوع وقد
خيل للناس أن ملكا من السماء قد هبط فجأة الى الارض
وتنقل في ثراها متمصا شخص أحمد ، فيالجلال المنظر ويا لعظمة
الامام ، وتسمع صاحب الخان الى الضجة القادمة من بعد فأطل بعينه
ليرى ، فوجد الطوفان يزحف نحو خانة المغمور ، فتساءل من يكون
سيد الركب ؟ أهو حاكم كبير فأين الحراس والحجاب ومظاهر
الحكم ?? أهم غرباء قد أتوا جميعا للاقامة ؟ فأين ذهبت خانات بغداد
الفاخرة وفتادقها العظيمة ؟ ودنا الطوفان فعرف ان أحمد قد سعى
ليزور مريضه العليل !!!

تقدم الامام ووقف قليلا أمام تلميذه ودعا الله ثم سار !!!
ولا تسل عن شهرة الخان بعد ذلك فقد تزامحت عليه الوفود فهذا
زائر يريد أن يجلس في مكان وقف فيه الامام ، وهذا مقبل يود أن
يسير في موضع سار فيه الامام ، وهذا محب يرغب ان يستعيد حديث
الامام !! ونظر صاحب الفندق فاذا الربح الكثير والشهرة الزائفة ، حتى
اضطر أن يكتب لافتات يخط فيها ، هنا جلس احمد ، وهنا وقف
احمد ... وهنا تكلم أحمد !!! ولك بعد ذلك ان تقدر ماله الطائل
وكنزه الحفيل ، أى ملك هذا ! وأى سلطان ؟ لو أن أمير المؤمنين

قد زار هذا الخان ماسع به أحد ، ولكن امام أهل السنة قد أناه
فأصبح مهوى الأفئدة ومراد النفوس ..

أى شهرة طارت للرجل ؟ وأى حب تدفق فى نفوس العامة من
الناس ؟

وأى جاذب جذبهم الى التجمع حول داره فى ظلمات الليل
وتحت وابل المطر، وعصف الريح ؟ ، ذلك مايؤرق أحمد ويضنيه !!!
ويجعله فى كمد محرق وغيظ أليم ...

انه يخاف مقام ربه ، فى يوم تشخص فيه الابصار ويخشى
ألا يكون كما يظنون ...

فكر الامام وقدر، ثم هداه تديره أن ينخرط فى العبادة ، صلاة
وصياما وتلاوة ، وما زال على وهن القوة ، يقوم الليل يصوم
النهار ثم يواصل فلا يفطر الا بعد ثلاثة أيام وهو بعد
شيخ عليل معذب مستحق فظارت قواه وتهالك جسمه وأصبح قاب
قوسين من لقاء الله وتلك نهاية كل حى يعيش !!!

ففى أول ربيع أصيب بالحمى وقد صحبها ضيق فى التنفس ،
واتشر خبر ذلك فى بغداد فتجهر الناس أمام بيته وفى الطرق المؤدية
اليه ولم يستطع أحد الدخول أو الخروج من عنده بغير عناء مرهق
لشدة مايلقى من الجهد والنصب حتى اضطر حاكم بغداد أن يقيم
الحراس على باب الدار ، وأن يدفع الكتائب لتمنع التجهر فى الطرق
المتجهة اليه ، ولم يؤذن لغير الطبيب بعبادته ، وقد اهتم المتوكل
بمرضه فكافأت أنباء صحته تفد اليه ساعة بعد ساعة ، وقد حرص
أحمد فى مرضه على ألا يؤخر الصلاة أو يرتفع صوته بأنين ، وحين
ثاب اليه بعض رشده سأل عن كيس دراهمه فلم يجد به غير درهم
واحد فأوصى ان يشتري به مع شئ من غلة داره ثمرا ثم يوزع على
الفقراء كفارة يمين يتوهم انها لم تقع موقعها الصحيح ، وجعل
يتشد فى السنة فيأتى بما كان يأتى به من الفعل وهو معافى صحيح،

وقد صاح صائح خارج المنزل ينادى بسمه فاستدعاه فذا شيخ
ينشج في لوعة ويقول : لقد كنت ممن قام بتعذيبك في عهد المعتصم
وانى لأرجو المغفرة ، فاستغفر له احمد طالبا ألا يعود الى مثل
ذلك قط ...

قال السبكي في الطبقات (١) مرض أبو عبد الله ليلة الاربعاء
للثلاثين خلثا من ربيع الاول وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليه
أفواجا يسلمون عليه ويرد عليهم وتسامع الناس وكثروا وسمع
السلطان بكثرة الناس فوكل بيايه وبياب الزقاق ، الرابطة وأصحاب
الاخبار ، ثم أغلق باب الزقاق فكان الناس في الشوارع والمساجد
حتى تعطل بعض الباعة وحيل بينهم وبين البيع والشراء

وقد جاء أمير بغداد يطلب عيادة المريض في ملأ من حراسه فرفض
الامام اذ ان أمير المؤمنين نفسه قد علم رغبته في عدم رؤيته فكيف
بحاكم بغداد ؟! لقد كان الامام حتى آخر ساعاته يكره لقاء
أصحاب السلطان وينأى عن كل ما يمت اليهم بسبب كان اذ أنه
يعلم في اعتقاده أن ذوى الامر ظالمون غاصبون فالقرار القرار

وحانت الساعة الرهيبة فجعل بغداد أسف كتيب وهرع الناس
الى المساجد والطرقات واجمين ذاهلين ولم يبد الموت عظيما في
نفوس الناس كما بدا يوم أحمد ، لقد كان للفناء معنى مؤثر قاهر !!!
اذ عصف بطود أشم ، أصله ثابت ، وذروته في السماء وجاء أمير
بغداد ليقوم بتجهيزه وتكفينه فحالت وصية الامام دون ذلك ، فهو
لا يريد أن يسمى الى قبره مؤتزا بلقائف الغاصبين ، ولم ير الحاكم
بدا من الانصياع والاستسلام ، حتى الصلاة عليه !!! لم يشأ
بنو أحمد أن يقوم بها الحاكم نيابة عن أمير المؤمنين فغلبهم على ذلك
وتقدم للصلاة وعلم الناس ، فأخذ كل بغدادى يصلى بنفسه أمام
القبر وجعلت طوائف الناس تقف أشمرا بعد أشهر للصلاة
وما انقطع ذلك الا بعد أمد طويل ..

أما جنازة الرجل فحدث عنها ولا عجب ... فقد سار الطوفان
اللبج يتدافع ويتراكب حتى غمر الأرض وغص بالفضاء وقد قيل
ان المتوكل أمر بأن يقاس المكان الذي وقف فيه الناس للصلاة على
أحمد ، فبلغ مقاسه ألفي ألف وخمسمائة ألف !!!!!

وقد فتحت ابواب جميع المنازل ليتوضأ من يشاء فيصلى على
أحمد وظل الناس في تدافعهم وتزاحمهم لا ينقطعون حتى قال
أبو الحسن اليميني « لقد مكثت أياما رجاء ان أصل الى
القبر فلم أتمكن - للزحام - الا بعد اسبوع (١) » .

اننا نشهد بعض الدول تقيم المواكب للموكها الراحلين وتأخذ
في اعداد العدة لذلك أياما وأسابيع ، فاذا انتقل الراحل الى قبره
مضى كل شيء وتبدد كل جهد في الاحتفاء والاحتفال ولكن
جنازة أحمد لم تدع اليها دولة ولم يمض وقت في تهيئة موكبها ورسم
طريقها ، ومع ذلك فقد مكث أحد تلاميذه سبعة أيام حتى استطاع
ان يصل الى القبر ..

فأى سلطان ذاك ؟

مات الرجل فودعته بغداد وانطلقت الألسنة في الثناء عليه ،
مسبهة مطيلة بعد ان كانت تختصر في مديحه حرصاً على رضاه
وطاعته لرغبته ، وقد اجتمع لداته من الفقهاء والعلماء يذكرون محامده
ويلهجون بالثناء عليه فرويت عنهم أقوال زاخرة تموج بها كتب
المناقب حتى لانعلم أحدا سبق له هذا القدر الحافل من الثناء في
عصر أحمد سواه .

قال يحيى بن معين رضى الله عنه ... أراد الناس منا أن نكون
مثل أحمد بن حنبل لا والله ما تقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على
طريقه أحمد ...

(١) المقرئى فى المقفى نقلا عن ابن حنبل والمحنة ص ٢٢٨

وقال الحجاج بن الشاعر ... ما كنت أحب أن أقتل في سبيل
الله ولم اصل على احمد ابن حنبل فوالله ما رأيت عيناى روحا في
جسد أفضل منه

وقال ابو داود .. كانت مجالس احمد مجالس الآخرة لا يذكر
فيها شيء من أمر هذه الحياة ...

وقال بشر بن الحارث ... أتريدون منى ان أقف موقف ابن
حنبل ! ؟ أتريدون منى ان أقوم مقام الانبياء !! ؟ لقد أحرقت في الكير
فكان « ذهبة » حمراء ..

هذه أقوال مقدرية من العلماء ، أما التاريخ فقد قال في احمد
كل طيب جميل فهو في سجله الخالد امام عذب فصير ... ومحدث
روى فصدق ، وفقه غرس فأثمر ، وزاهد عاف الحياة فدانت له
الحياة ...

ثم جاءه اليقين فضجت عليه الارض واثقلت به السماء رحمه
الله ...



۱۵۷ شارع عبید - روض الفرج

تلیفون ۴۰۵۸۸ - ۴۰۸۱۴ - ۴۰۷۵۳ - ۴۱۰۱۲ - ۴۵۳۴۶